الأعمى

الأعمي
قصة
لؤي عبد المنعم
الطبعة الأولي .. ٢٠١٣

الغلاف : أحمد فرج
مراجعة لغوية : محمد عبد الغفار
اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢٠٣١٤
الترقيم الدولي : 978-977-6412-43-9

الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج
محمول : 01141824562
dar_el7elm@hotmail.com

سلسلة لغة القلوب

-١-

الأعمي

د/ لؤي عبد المنعم

سمعت صوت دقات قلبك فعلمت أني سأراكِ
شعرت بكِ عندما ارتجف قلبي وزادت نبضاتي
سألت نفسي: هل يوما سأراكِ؟
هل يوما سأنتهل من جمال عيناكِ؟
لكنّي قلت لنفسي إن حبّي لا يحتاج لعين حتى تراكِ
فأنا أحبّك.. أعشقكِ.. أهواكِ.. ولو لم أرَكِ
أشعر بحبك.. بحنانك.. بلهفتكِ.. بكلمات لا تخرج حتى من فاكِ!!
كلمات تسري من قلبكِ حتى قلبي الذي يهواكِ
كلمات بلغة لا يعلمها إلا سواي وسواكِ
لغة من دون كلمات أو همسات..
لغتنا هي لغة الحب.. والعشق.. والخلود
لغتنا هي لغة.. القلوب

* * *

عندما تستمع أذني لصوت خطاكِ
عندما يدقّ القلب لأنه شعر بلقاكِ
عندها.. أعلم أنّي.. أراكِ
أملأ قلبي.. بهواكِ
أتلمّس وجهك..
أتنسّم عبير شفاكِ..
أنا لست بأعمى..
لأن قلبي.. يراكِ..

* * *

- ١ -

من البداية

على سطح مياه البحر الأبيض المتوسط وتحت سماء زرقاء تسبح بها بعض السحب هلامية الشكل تتخللها أشعة الشمس الدافئة، شقّت مقدّمة الباخرة إخناتون الماء بقوّة وهي تسبح فوقه كأنّها سمكة كبيرة رشيقة..
وعلى سطحها كان المصطفون يستمتعون بهذا الجوّ الصحو الجميل وبالشمس الدافئة..
منهم من استلقى في هدوء ومنهم ما زال يقف على شرفه الباخرة يودّع أقاربه وأهله..
وإن كان الشاطئ قد أصبح مثل البقعة البيضاء الصغيرة..

- مرحبا بكم على ظهر الباخرة السياحية «إخناتون»..
انطلق هذا الصوت من مكبرات الصوت في جميع أركان الباخرة، الذي تابع:
- معكم القبطان «ماهر علي سليمان» الذي يحييكم هو وطاقمه، ونتمنّى لكم رحلة سعيدة..
كما يسعدني أن أقدم تحيّتي الخاصة لكل الأزواج على سطح المركب وأتمنّى لهم شهرا من العسل مفعما بالسعادة، وأخصّ بالذكر كلا من:
المهندس عاصم عبد الله وزوجته السيدة شذى عبد المنعم..
الأستاذ عادل فاروق وزوجته السيدة عبير سليمان..
المهندس باسم عبد الهادي وزوجته السيدة إيمان توفيق..
الأستاذ...
أخذ يعدد الأزواج والزوجات بينما أمالت إحداهن رأسها على كتف زوجها وهو يضع يده علي كتفها في رفق قائلة في سعادة:
- باسم.. لقد ذكروا اسمنا.. هل سمعته؟
أجابها مبتسما:
- بالطبع يا حبيبتي، وهل يستطيع أحد ألا يستمع لاسمك الجميل هذا؟
ابتسمت في سعادة ثمّ تابعت في لهفة وهي تتلفّت حولها:
- أتعلم يا حبيبي أنني أشعر أن الجميع يراقبوننا الآن؟
ضحك وهو يضمّها إلى صدره في حنان واضح:
- بالطبع يا حبيبتي؛ فالجميع يحسدونني على أنني زوجك وأنّني أجلس بجوار أجمل امرأة في العالم.
استكانت بين يديه في سعادة وهي تستمع إلى برنامج الرحلة الذي كان يُذاع الآن ويقول:
- وأول توقّف لنا سيكون في جزيرة كريت، باليونان، ثم ننتقل منها إلى

روما، ثم إلى ميناء مدينة «نيس» في فرنسا، ثم ننطلق بكم إلى برشلونة فتونس، وأخيرا مدينة مالطا ثمّ نعود أدراجنا إلى ميناء الإسكندرية.. نتمنّى لكم إجازة سعيدة ورحلة أنا أعلم جيّدا أنها لن تُنسى من ذاكرتكم أبدا..

كانت تستمع إليه وهي تتخيّل كل تلك الأماكن، إلا أنها شعرت بالقلق فقالت:

- باسم.. هل كنّا على صواب عندما اخترنا هذه الرحلة؟ ألا ترى أنّها.. أنّها غير مناسبة لحا...

قاطعها باسم وهو يلتفت إليها قائلا:

- حبيبتي.. من قال إنها غير مناسبة؟

سوف نمرح كثيرا ونشاهد عدّة دول لم نرَها من قبلُ..

ونحن في البحر بكلّ جماله وسحره، وأيضا سنقابل د. لويس موران، الذي سيقوم بالعمل..

- أخيرا.. أخيرا وجدّتكما أيها العروسان المختفيان.

قاطعه هذا الصوت المرح، الذي تابع..

- إنّني لم أصدّق نفسي عندما سمعت اسميكما على ظهر هذا المركب.

التفت إليه باسم وعلامات الفرحة تملأ وجهه عندما ميّز صاحب هذا الصوت، الذي تابع وهو يفتح يده في حركة مسرحية:

- باسم عبد الهادي، الذي يخاف من الماء على سطح سفينة في عرض البحر.. يا للهول!

تعانق الاثنان معا وإيمان تراقبهما مبتسمة بينما زوجها يقول:

- هيثم يا صديقي العزيز.. آخر من كنت أتوقع رؤيته أيضا.

أخذا يتعانقان في ود ومحبّة ثمّ التفت باسم إلى زوجته قائلا:

- هذا صديقي هيثم الذي كنت أحدّثك عنه..

حيّاها هيثم بإيماءة من رأسه بينما تابع باسم معاتبا:
- وصديقي النذل الذي لم يحضر فرحنا.
ظهرت علامات الخجل على وجه صديقه وهو يقول في أسف:
- أنا في قمّة الخجل والأسف يا صديقي، فقد كنت في فرنسا أقوم بتحضير معرض الصور، ولم أستطع العودة، فلا تسئ الظنّ بي يا صديقي؟
ربت على كتفه وهو يقول:
- لا عليك يا صديقي.. قل لي أي غرفة أنت بها.
- غرفتي رقم ٢٠٥ طبعا، لن أقول لك لو شئت شيئا فقط قُل: «جاااااازر».
ابتسم لدعابته وهو يقول:
- وهو كذلك يا جزر!!
ابتسم هيثم وقال:
- عزيزي لك عندي صورة وأعدك أنها ستكون مختلفة تماما.
ابتسم باسم قائلا:
- آه أكيد ستصوّر زوجين آخرين.. أعلم كم أنت مجنون في تصويرك.
ضحك هيثم وهو يقول:
- بالطبع، أليس الفنون جنونا؟
- الآن سأترككم لتستمتعوا بالوقت سويا، تحياتي سيدتي..
ابتسمت إيمان وهي تومئ برأسها تحية له بينما هو يغادر المكان وهو يلوّح لهما بيده.
عادا ليجلسا أمام البحر وهي تضع رأسها على كتفيه في حنين واضح، وبعد أن طال صمته قالت له:
- حبيبي، أين ذهبت؟
أخرجه صوتها مما كان فيه فقال:
- آسف.. ماذا قلتِ؟

ضحكت في دلال وهي تتنسّم عبير البحر قائلة:
- يبدو أن جمال البحر أخذك منّي.
ضمّها إليه وهو يقول في حب:
- حبيبتي لا شيء أبدا يستطيع أخذك منّي، أنا فقط كنت أفكّر فيكِ وأرى صورتك مرسومة على صفحة الماء.
قالت في دهشة:
- تفكّر في وأنا معك؟
التفت إليها وهو يتحسّس وجهها بيده قائلا:
- نعم.. أفكّر في السعادة التي أعطيتِها لي منذ أن رأيتك أول مرّة، وأحببتك من أول همسة همستِ بها، حتى إنني غير مصدّق أنّنا معا الآن.
أغمضت عينيها في إحساس وحنين وهي تقول:
- بل أنا يا حبيبي التي لا تستطيع أن تصف لك كم أنا سعيدة بقربك، وكم أنا أحبك وكم أتمنّى أن أظل بقربك دائما.
ضمّها إليه وهو يقول:
- دائما يا حبيبتي.. دائما وإلى الأبد..
وجدها تقول في حبّ:
- أما زلت تذكر أول يوم تقابلنا فيه؟
شرد بذهنه لحظات ثمّ قال:
- وهل هذا يوم ينسى؟!
التفتت إليه وهي تتصنّع الغضب وتقول:
- نعم لا يُنسى فقد صفعتني وقتّها بقوّة؟
وضع يده في رقّة على وجهها قائلا:
- كم تمنيت أن تقطع يدي لأنها امتدّت على أحب من في الدنيا إليَّ، لكن أنتِ تعلمين، كان هذا في مصلحتك.

أمسكت يده لتطبع عليها قبلة رقيقة وتحتويها بين راحتي يديها قائلة:
- سلمت يدك يا حبيب العمر.
ضمّها إلى صدره في حنان وهو يشعر أن جميع من حوله قد اختفوا وتركوه هو وهي والبحر الأزرق الجميل لينعم بحبّهما..
أخذ شهيقا من هواء البحر بينما زوجته تستكين بين يديه وهو يداعب خصلات من شعرها الناعم الذي يتطاير على وجهها وأغمض عينيه ليسبح بعقله بعيدا.. بعيدا عن البحر.. بعيدا إلى عام كامل مضى.. إلى أول يوم تقابل فيه مع حبيبته.. وتذكر أول لقاء.. وأوّل حب..

* * *

- حادثة.. حادثة يا د. هشام.. حادثة فظيعة..
انتفض د. هشام وهو يقوم من مكانه بسرعة بينما كنت أجلس أمامه وأنا منتبه بكل حواسي لذلك الشخص الذي تابع وهو يلهث..
- اصطدام فظيع حدث بالقرب منّا بين حافلة سياحية وقاطرة نقل، ما أدى إلى تهشم الأولى تماما..
كان الفزع يطل من وجهه وهو يسرع للهبوط إلى قسم الاستقبال لمتابعة ما حدث، بينما يردد قائلا:
- سترك يا إلهي.. سترك يا إلهي.
كنت ما زلت في مكاني جالسا لم أتحرّك..
قد يكون من هول ما سمعته أو مما تذكّرته..
كلما أسمع عن حادثة سيارة تعود بي ذاكرتي إلى ما حدث لي منذ عام تقريبا..
تلك السيارة اللعينة التي يقودها شاب سكران وهي تصطدم بسيارتي و...
بشعة.. حادثة بشعة.. كم أكره هؤلاء المتسرعين في حياتهم دائما.
سمعت صوت صديقي هشام وهو يدلف إلى الحجرة ويصب جامّ غضبه في هذه الكلمات ويتابع:
- خمسة عشر قتيلاً مرة واحدة؟
لقد دمرتهم سيارة النقل هذه..
- يا له من عدد.. ١٥ مرة واحدة!
قلتها وصوتي يرتجف من هول العدد الكبير، بينما تابع صديقي وهو يجهّز بعض أدواته الجراحية:
- غير الجرحى.. غير الجرحى يا صديقي!!
أمسك معدّاته واتجه إلى الباب وهو يقول لي:

- آسف يا صديقي، لن أستطيع متابعتك اليوم.
قمت من مكاني قائلا بسرعة:
- لا عليك يا صديقي.. أنا كنت مغادرا على كل حال.
غادر المكان وأنا في أثره وأذني تلتقط الكثير من الأصوات و.. الصراخ..
آهات الألم المنبعثة من المرضى والجرحى كانت تدوي داخل رأسي كآلاف من الأجراس..
كان جسدي ينتفض عندما مررت بصعوبة من باب المستشفى، وما إن هممت بركوب السيارة الأجرة حتى سمعت صوت صديقي هشام وهو ينادي عليَّ بقوّة..
التفتّ ورائي لأسمع صوت لهاثه وهو يقترب منّي قائلا:
- صديقي.. نحن.. نحن نحتاج إليك؟
- ماذا حدث؟
قلتها وهو يجذبني من يدي ويسرع بي وهو يقول:
- مترجمة الفوج السياحي الفرنسي، فتاة في الـ٢٥ من عمرها، وقد حدث لها نزيف حاد ولا بد من نقل دماء لها في أثناء العملية الأساسية.
عقدت حاجبي في دهشة وأنا ألهث وراءه قائلا:
- وما.. وما علاقتي بهذا؟
توقف أمام حجرة ليدفع بابها وهو يجذبني إليها قائلا:
- الدماء.. سائل الحياة يا صديقي.. عند تحليل فصيلة دمائها وجدناها فصيلة نادرة وأنت تعلم أننا مستشفى حكومي وإمكاناتنا قليلة، وهنا تذكّرتك فأنت تمتلك الفصيلة نفسها.. هيه ما رأيك؟
ومن دون تردّد كشفت عن ذراعي لأمدّها وأنا أقول:
- خذ ما شئت لتنقذها فأنا أبدا لن أتأخّر لإنقاذ أحد.
أخذ عينة منّي ليقوم بتحليلها، بينما الممرضات يجهزنني لأدخل حجرة

العمليات لأنقل لها الدماء مباشرة في أثناء عمليّتها وتمرّ دمائي إليها من خلال ذلك الأنبوب الذي يتصل بجسدها..

كنت أستمع إلى صوت صديقي وهو يملي تعليماته على طقم العمل أو يطمئنّ عليَّ. لم أشعر بالوقت وهو يمرّ ويمرّ وأنا أسترجع هذا الموقف نفسه عندما أخرجوني من السيارة التي انقلبت بي..

كنت أشعر بدمائي الحارة وهي تسيل على جبيني وأنا أرقد على سرير بسيط داخل مستشفى ريفي صغير ويجلس بجواري شيخ في الـ٦٠ من عمره، وأسمعهم يقولون:

- عمّ حمزة، هل أنت متأكد أنّك تستطيع التبّرع في حالتك هذه؟

- توكّل على الله يا دكتور، دي روح ولازم نعمل اللي علينا، المهم البنت اللي جت معاه هتحتاج نقـ...

قاطعه الطبيب وهو يضع سنّ المحقن الغليظ داخل عروقه:

- الفتاة توفيت منذ دقائق ونحن نحاول إنقاذه.

كنت أراهم، لكنّي لا أستطيع التحدّث حتى شعرت بتلك السحابة السوداء التي ملأت عيني وغبت عن الوعي حتى الـ...

- باسم.. باسم.. هل أنت على ما يرام؟

فتحت عينيّ المغمضتين وقاومت ذلك الدوار الذي أشعر به وأنا التفت إليه قائلا:

- نعم.. أنا بخير.. هل انتهيتم؟

تركني ليكمّل جراحته قائلا:

- باقٍ قليل يا صديقي.

شعرت بالدوار يزداد أكثر مع كلّ نقطة دماء تخرج منّي وأنا أتحمّل.. حتى سمعته يهتف قائلا:

- الحمد لله.. لقد نجت من الموت و...

لم أسمع باقي الكلمات، فقد أسلمت نفسي لغيبوبة.. طويلة.

-٢-

من أنت ؟

- حمدا لله على سلامتك يا باشمهندس باسم..
سمعت هذه الكلمات وأنا أحاول أن أفتح عيني على الرغم من ثقل جفوني، وشعرت بمن يساعدني على رفع جذعي ليضع وسادة خلفه ويقول:
- - على مهلك يا صديقي، فأنت ما زلت متعبا.
أغمضت عيني قليلا حتى أستجمع بعضا من قواي وهو يتابع:
- إنّني ألوم عليك؛ لأنّك لم تخبرني أنّك ممنوع من التبرع بدمائك لستة أشهر على الأقل.

ابتسمت ابتسامة واهنة وأنا أقول له:

- لم أكن أستطيع عدم تلبية الواجب.

سكتّ قليلا وأنا أبتلع بعضا من لعابي الجاف:

- كيف حالها الآن؟

شعرت به وهو يمسك بيدي ليقيس النبض وهو يقول:

- - إنها بخير حال.. بفضلك طبـ..

قاطعته قائلا:

- بل بفضل الله وحده.. هو الذي جعلني أكون سببا لبقائها على قيد الحياة.

حنى رأسه في خشوع وهو يقول:

- - ونِعم بالله يا صديقي.. الحمد لله نبضك أصبح طبيعيا وسأسمح بالزيارة.

فتحت عيني بدهشة وأنا أقول:

- زيارة.. زيارة من؟!

ربت على كتفي وهو يقول:

- - يا عزيزي، إنّك فاقد للوعي منذ يومين تقريبا.

التفت إليه ودهشتي تتزايد قائلا:

- يومان.. ألهذه الدرجة كنت متعبا؟

أجابني وهو يفتح باب الحجرة:

- أكثر.. أكثر جدا.

سمعت صوت أخي وأمّي وهما يدلفان من الباب وأخي يقول:

- حمدا لله على سلامتك يا أخي.

حاولت النهوض إلا أنّني وجدت أمّي تُجلسني وهي تأخذني بين ذراعيها لأستسلم لها وأنا أشعر بحنانها ودفء قلبها وحبّها.

سمعت صوت صديقي د. هشام يقول:
- أنا لا أتحمّل هذه المواقف.. سأذهب الآن فعندي مرور وأيضا ميعاد فكّ الرباط قد...
قطع كلمته عندما التفت إليه باسم وقد ضاقت حدقتا عينيه في حدّة، بينما ظهر الفزع على وجه والدته وإن لم تقل شيئا بينما قال باسم:
- رباط.. رباط ماذا؟
ظهر التردد على وجه د. هشام وهو يرقب نظراتهم إليه وهو لا يدري ما سبب هذا الفزع والترقّب اللذين على وجوههم وقال وهو يتابعهم بعينه:
- إنّه رباط الوجه للفتاة التي أنقذتها.. رباط عملية الـ...
تردد قليلا وهو ينقل بصره إلى والدة باسم التي شحب وجهها وهي تضمّ باسم إليها في خوف ورهبة، فتابع:
- إن الحادثة أثّرت على عيني..
لاااااااااا.
صُدمت وأنا أسمع تلك الصرخة منه وأرى وجهه المليء بالفزع وهو يتابع:
- لا تكمل.. أرجوك لا تقُل شيئا..
توتّر الجو في الحجرة مرّة واحدة ووجدت أخاه يشير إليَّ من خلف ظهره بالخروج.
خرجت وأنا أتابعه وهو يدفن وجهه في صدر أمّه وأنا لا أعلم ماذا حدث.
خرج أخوه معي لأجده يقول:
- آسف جدا يا د. هشام على ما حدث، لكنّها ذكرى تلك الحادثة التي مرت به؛ فقد تشابهت الظروف تقريبا وهو لا يحب أي شيء يفكّره بتلك الحادثة..

- حادثة سيارة.. أتعني أن ما به هذا كا...

قطع كلمته ثمّ تابع وهو مندهش:

- لكنّ الفتاة حية، وأنا كنت أعتقد أن ما به هذا بسببها، وهو لا...

قاطعه في لطف قائلا:

- ليس هذا وقت النقاش؛ فأنت ستتأخّر عن عملك، أليس كذلك؟

تركه د. هشام ليدلف إلى الحجرة المجاورة؛ حيث جلست فتاة على الفراش، التي انتبهت إليه على الرغم من ذلك الرباط السميك الذي يعصب عينيها..

وقف بجوارها ومعه إحدى الممرّضات ليسألها:

- كيف حال قياساتها؟

أجابته الممرضة بينما الفتاة تنصت إليهما في شغف:

- الحرارة ٣٧ وضغط الدم ١٤٠ على ٩٠ والنبض ١٠٠.

قال في هدوء ليطمئن الفتاة:

- عظيم.. عظيم جدا.. لقد تعافيتِ بسرعة يا آنستي.

ظهر شبح ابتسامة ذابلة على وجه الفتاة، ثمّ قالت وهي تلمس ذلك الرباط:

- هل.. هل.. ستزيله الآن؟

قال لها وهو يقترب:

- نعم.

أشار بيده إلى الممرضة التي كانت تمسك بالمحقن وقال:

- سنعطيكِ حقنة مسكّنة حتى تسكّن آلام الجراحة.

شاهد الممرضة وهي تفرغ السائل الشفاف في عروقها، لم يكن يريد إخبارها أن الحقنة بها مخدّر وليس مسكّنا؛ فهو يشعر بأن الأمور ليست على ما يرام فقد أصيبت بارتجاج شديد في المخّ ونزيف حاد وإصابة في

عينيها كوَّنت تجمعات دموية فوق الشبكية و...

- هل عمّي هنا؟

أخرجه السؤال من شروده فقال:

- للأسف لم يأتِ إلى الآن.

اقترب منها ليشعر بتردّدها فسمّى باسم الله تعالى وبدأ بفك الرباط حتى انتهى ليجدها تفتح جفنيها في بطء شديد وهي تدير وجهها في اتجاههم..

كان د. هشام يتابعها في ترقّب حتى فتحت عينيها على اتساعهما وهي تنظر في اتجاهه لتظهر تلك الملامح على وجهها..

ملامح جعلت د. هشام يعقد حاجبيه في قوّة وهو يستمع لتلك النبضات، نبضات قلب ارتفع صوتها عاليا جدا..

بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم..

- دكتور.. هل.. هل أزلت كامل الرباط من فوق عيني؟

قالتها بصوت متردد جعل صوت دقّات قلبها يعلو أكثر وأكثر..

بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم..

أجابها صمت من د. هشام الذي كان يتمعّن في عينيها وهي تتابع قولها بينما ترفع يدها إلى وجهها في بطء شديد وقلبها يدقّ كأعنف ما يكون..

بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم..

- لماذا لا تجيبني؟ هل أزلت الرباط من فو...

قطعت كلمتها وهي تتحسّس بيدها وجهها وتضع يدها أمام وجهها وتحركها أمامها ودقات قلبها تعلو أكثر وأكثر..

بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم..

- أنا.. أنا..

أخذت تتلعثم وكأن الكلمات تحتقن داخل فمها ولا تريد أن تخرج،

فأخذ فكيها يتحرّكان من دون صوت وإن كان صوت قلبها هو الذي كان مسموعا..

بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم..

- لا..

بصوت ضعيف قالتها لتعلو قليلا وهي تحرّك وجهها يمينا ويسارا:

- لاا.. لاااااااااا.

علت صرختها وهي تنتفض بعنف وتتابع بينما أنهار من الدموع تساقطت:

- أنا لا أرى شيئا.. لا أرى شيئا..

أخذت تتحسّس وجهها وعينيها وتقول:

- ماذا حدث؟ عيناي.. أجيبوني.. عيناااي.

أمسكتها الممرضة عندما حاولت النهوض ود. هشام يقول لها:

- اهدئي يا آنستي.. أرجوكِ اهدئي.

- عيناي.. عيناي يا دكتور.. أنا لا أرى.. أنا عمياء.. عمياااء.

أخذت تصرخ من هول المصيبة التي بها وهم يحاولون تهدئتها وهي تقاومهم قائلة:

- لماذا؟ لماذا يا إلهي؟ لماذا أنا؟

دفعت الممرضة بقوّة وأفلتت من يد د. هشام وهي تقول في انهيار تام:

- لماذا أنا يا إلهي؟ لماذا تأخذ منّي بصري؟ عيناي!!

صرخ فيها د. هشام وهو يمسكها بقوّة محاولا أن يعيدها إلى الفراش وهي تتابع قائلة:

- مستقبلي.. حياتي.. عمري.. كلهم ضاعوا.. ضاعووووا..

- اهدئي.. اهدئي أرجوكِ.. ما تفعلينه هذا خطأ.

كانت تتابع وكأنها لا تسمع أحدا:

- عمري كلّه ضاع.. ضاع..

صرخت أكثر وعيناها تمطران بالدمع:

- أنا لا أرى يا دكتور، أنا لا أرى، أنا.. أنا.. أنا عمياااااء.. عمياااا..

- لاااااااا.

سمعت تلك الصرخة تأتي من باب الحجرة بصوت مختلف جعلها تصمت قليلا والجميع يلتفت إلى مصدرها، بينما قائلها يتابع وهو يقترب منها:

- لا تقوليها ثانية.. لا تقوليها!!

صمت الجميع مع ذلك الصوت القوي الذي كان يقترب منها ليقف أمامها ويمسك كتفها متابعا:

- إنّكِ لستِ هكذا.. إن كنتِ لا ترين بعينيكِ سترين بحواسّك الأخرى.. اشكري ربّك لأنّك ما زلتِ تتمتّعين بها..

كانت عيناها تفيضان بالدمع وشفتاها تهتزان بقوّة وهما تتخبّطان بعضهما البعض، وذلك الصوت يتابع وهو يهز كتفيها بعنف:

- استغفري ربّك واحمديه أنّك ما زلتي على قيد الحياة ولا أحد يعلم ما يخفي القدر لكِ و...

قاطعته وهي تنتفض بعنف:

- القدر.. القدر.. القدر أنّني سأفقد حياتي..

القدر أنّني لن أرى شيئا مرّة أخرى..

القدر أنّني سأصبح عمياء.. عمياء..

أخذت تنتفض وصوتها يعلو في هستيرية:

- عمياااااء.. عمياااااء..

توقفت الكلمة في حلقها وعيناها تتسعان في قوّة وجميع مَن في الحجرة يوجّهون نظراتهم نحوي في ذهول عندما دوّت تلك الصفعة على وجهها.. صفعة أودعتها كل قوتي ليتردّد صداها داخل الغرفة بينما أشعر بها وهي

تقع فاقده للوعي عند قدمي وأنا أردد بتوتر وعصبيّة:
- إنّكِ لستِ عمياء.. لستِ عمياء..
شعرت بمن يجذبني بقوّة ويهزني بعنف قائلا:
- باسم.. اهدأ.. باسم!!
التفتّ إليه قائلا:
- هي ليست بعمياء يا هشام.. هذه الكلمة بشعة.. بشعة..
أجابني وهو يجذبني إلى الخارج:
- نعم.. نعم يا باسم..
شعرت به وهو يضعني على فراشي في الحجرة المجاورة وصوت أمي الباكي يملأ أذني وأنا أتابع:
- أنا لا أحبّ هذه الكلمة.. أنا أكرهها.. أكرهها..
شعرت بشيء يتدفّق داخل عروقي لتتثاقل جفوني ويتعاظم اللون الأسود من حولي..
وبينما جفوني تنغلق عمّن حولي كان لون واحد فقط هو ما أراه..
لون واحد فقط لا أرى سواه..
لون أسود.. أسود قاتم..

* * *

أسبوع كامل مرّ على هذه الواقعة..
رجعت إلى المنزل لأباشر عملي في مجال الكمبيوتر وكنت عند عميل بجوار المستشفى الذي يعمل فيه صديقي عندما شعرت بشيء يشدّني إلى زيارته، وما إن دلفت إليه حتى قال ضاحكا:
- باسم ؟ يا ليتني طلبت مليونا من الجنيهات.
ابتسمت على تعليقه قائلا:
- مليون.. فقط؟
أخذ يحييني، وعندما جلست أمامه قلت له في أسف واضح:
- لقد جئت لأعتذر عمّا بدر منّي سابقا، لا أعلم لِمَ تهوّرت وفعلت ذلك.
ربت على كتفي قائلا:
- لا عليك يا صديقي، ولقد فعلت ما كنت أنوي أن أفعله فعلا.. ولولا تدخّلك لكانت قد أصيبت بانهيار عصبي. أتعلم أن إيمان تسأل عنك كل يوم وتريدك أن...
قلت له في استغراب مقاطعا:
- إيمان؟ إيمان من؟
ابتسم قائلا: آه.. إنّك لم تعرف اسمها بعدُ.. إيمان هي الفتاة التي صفعتها.. أقصد التي أنقذتها، هي تريد أن تشكرك على ما فعلته معها.
قلت في دهشة:
- تشكرني؟! أنا؟
أمسك يدي ليجذبني وهو يقول:
- دعنا نذهب إليها ونرَ ماذا ستقول لك.
حاولت الاعتذار إلا أنه جذبني أكثر حتى وصلنا إلى باب الحجرة الذي فتحه صديقي قائلا:
- إيمان.. مفاجأة سارة قد أحضرتها لكِ.

قامت من مجلسها من أمام نافذة حجرتها والتفتت قائلة:
- مرحبا د. هشام!! أي مفاجأة أحضرتها معك؟
سمعت صوتها وأنا ما زلت خارج الحجرة ليدقّ قلبي بدقات لم أعهدها فيه من قبلُ.
- لقد أحضرت المهندس باسم.. وباسم هو الشخص الذي صفعك لأوّل مرّة في حياتك.. لقد جئت به إليكِ لتأخذي بثأرك منه.. باسم.. باسم.. تعالَ ولا تخَف.
سمعته ينادي عليَّ لأدخل الحجرة، بينما هي تبتسم وتمدّ يدها قائلة بصوتها الملائكي الجميل:
- مرحبا يا باشمهندس باسم.. إنّني شاكرة إليك كل ما فعلته من أجلي؛ فقد أنقذت حياتي مرّتين و...
قطعت كلامها وهي تعقد حاجبيها في قوّة عندما تعلّقت يدها ولم يسلّم عليها قبل أن تسمع صوت د. هشام وهو يقول:
- ما بالك تقف متحجرا هكذا؟! لا تخف وسلّم عليها.. أعطني يدك ولا تخف؟
مددت يدي لأسلّم عليها وما إن لمست يدها حتى ذاب كياني كلّه معها.. ذاب قلبي في لمسة يدها..
ارتجفت..
لا أدري ماذا حدث لي، هذه أول مرّة يحدث لي هذا.
هذا شعور لم أعهده فيَّ من قبل..
كنت ما زلت أحتوي أصابعها بين يدي وشعرت بها وهي تجذبها ببطء، وأنا أنظر في اتجاهها وصوت أنفاسها يتغلغل من أذني إلى...
قلبي.. ارتفعت الدماء إلى وجهي خجلا مما أنا فيه وتركت يدها، بينما هي تتنحنح في صوت خجول وتقول:

- كنت أريد شكرك لإنقاذك لي عندما تبرعت بدمك، وأيضا عندما أنقذتني من انهيار عصبي و...

نعم كنت أستمع لها، لكنّي كنت في عالم آخر..

لماذا؟ لا أدري.. أنا سعيد؟ نعم..

لقد قالت كلاما كثيرا وقلت أنا الآخر..

ماذا قلنا؟ ماذا حدث؟ لا أعلم.

فقط شيء واحد علمته وأنا أغادر الحجرة مع صديقي هشام، هو.. أنّني أحببت.

في شرود تام كنت أقف أمام صديقي مودعا إيّاه..

غادرت الحجرة لأقف عند الباب وأنا أنظر في اتجاه غرفة إيمان..

وقفت لحظات مضطربا ثمّ دققت باب غرفة صديقي مرّة أخرى لأدخل إليه..

وما إن رآني حتى قال بصوت كلّه قلق:

- باسم.. ماذا بك؟ لماذا تبدو شاحبا هكذا؟

سمعته وهو يقترب منّي في قلق، إلا أنّني قلت:

- هشام.. أريد منك وعدا.

وقف أمامي عاقدا حاجبيه في دهشة قائلا:

- وعد؟ وعد بماذا؟

سكتّ لحظات وأنا أدير وجهي بعيدا عنه لأخفي قلقي أو أخفي تلك الدمعة الحبيسة التي أرادت أن تفرّ من عيني وأنا أقول:

- وعد.. وعد بألّا تقول لإيمان إنّني.. إنّني.. لا.. لا أرى.. وإنّني مثلها.. أعمى..

وسقطت دمعتي وأنا أشعر بيد قوية تنقبض على قلبي وتعتصره.. بقوّة.

* * *

نعم أحبها..
أحبّها من كل قلبي..
أحبّها بكل كياني..
لهفتي لسماع صوتها.. إيجاد ألف حجة وحجّة لأراها وأرتوي من نبع كلماتها..
أحبّك يا إيمان.. أحبك.. أحبك ولكن..
عيني.. عجزي عن رؤيتك.. هل من الممكن أن تتقبليني هكذا؟
ربما لو كانت مبصرة لكان الأمر يختلف..
يختلف؟
دقّ قلبي من الخوف عندما مرّ هذا الهاجس بي فربما لو كانت مبصرة لما تقبّلتني..
هززت رأسي لأنفض هذه الأفكار وأنا أترك الأمر كلّه لله تعالى يدبّره حسبما يشاء..
كنت قد اقتربت من غرفتها، هكذا أخبرتني الـ«eye stick»، وهي تلك العصا الألمانية التي أعتمد عليها في الرؤية؛ حيث تحتوي على ميني كمبيوتر يقوم برصد كلّ ما حولي وينقله إلى مسامعي عبر تلك السمّاعة الصغيرة في أذني..
كنت منذ ذلك اليوم وأنا أمر عليها يوميا!!
كنت مع د. هشام نقوم بعمل برنامج تأهيلي لها.. كنت أنقل كل خبراتي ومعلوماتي لها.. كيف تستمع.. كيف تشعر.. كيف تحسّ.. كيف تقرأ بطريقه برايل.. كنت أنمّي كلّ حواسها الأخرى..
كلّ يوم كنت أريد إخبارها كم أحبّها، لكن عجزي كان يمنعني حتى اليوم.. اليوم الأخير.
هذه هي آخر مقابلة لي معها، ثمّ سترحل مع عمّها إلى مدينتها..

انقبض قلبي بشدّة وكأنّه يريد منّي الاعتراف لها بحبّي فقد لا أراها ثانية..

لا أراها.. نعم أنا أشعر أنّي أراها وأتخيّلها من كلماتها..

أنا أرسم الوجه الحقيقي لها من مشاعرها..

طرقت باب حجرتها لأجدها تقول:

- باسم.. مرحبا بك.. تفضّل.

عرفتني قبل أن تسمع صوتي.. دخلت الحجرة وأنا أقول:

- عظيم.. لقد عرفتِني.

قالت لي في سعادة غامرة:

- نعم؛ فطرقتك على الباب مميزة جدا.

ظهر الحزن على وجهي وأنا أقول:

- هل.. هل ستغادرين اليوم؟

أجابتني بصوت حزين هي الأخرى:

- نعم.. إن عمّي سيأتي اليوم ليأخذني معه..

طال الصمت بيننا حتى قلت لها وأنا أحاول أن أداري الحزن الذي أشعر به:

- الحمد لله أنّك قد أكملتِ برنامجك التأهيلي و.. و..

شعرت باحتقان، ما جعلني أصمت، بينما دمع الفراق يسيل على وجنتي..

- باسم.. أنت حزين؟ إن صوتك يبدو عليه الحزن.

قالتها لي فعدت أتمالك نفسي وأنا أقول لها:

- لا.. لا شيء.. ألن أراكِ مرّة أخرى؟

صمتت قليلا ثم قالت:

- الله أعلم.. لكنّي أتمنّى ذلك..

سمعت خطواتها وهي تتجه إلى النافذة وشعرت أنّني أسمع صوت

قطرات تتساقط، ثم وجدّتها تقول لي:
- باسم.. ألا.. ألا تريد قول شيء لي قبل أن أرحل؟
ألن أتكلّم؟
إنّي أشعر بحبّها لي، فتكلّم وقل إنّك تحبها.. بل تعشقها.
لِمَ الخوف؟
لِمَ التردد؟
- أنا أعلم..
قالتها بينما خطواتها تقترب منّي حتى توقفت أمامي فقلت في تردد:
- تعلمين؟ تعلمين ماذا؟
شعرت بها وكأنّها تخترقني بنظراتها وهي تقول:
- أعلم.. أنّك مثلي.. لا.. لا تبصر.
فوجئت بكلماتها هذه فلُجم لساني ولم أستطِع الحديث، بينما هي تتابع:
- أما زلت لا.. لا تريد قول شـ..
- أحبك!!
قاطعتها بكلمتي هذه وتابعت بصوت متهدّج:
- أحبك يا إيمان.. أحبك من أول يوم قابلتك فيه..
أحبّك بكل ما بي من مشاعر.. أحبّك وسأظلّ أحبّك طوال عمري.
قلتها وظللت مكاني منتظرا كلمتها، إلا أنّني لم أسمع سوى صوت أنفاسها وصوت دقّات قلبها وبعد صمت طال قالت لي في بطء:
- باسم.. أريد أن.. أن.. أراك.
قلت في دهشة:
- تريننني؟ كيف؟
شعرت بها وهي تقترب منّي لتلمس يدها كتفي وهي تقول:
- أريد أن أراك بيدي.. بإحساسي.. بقلبي..

شعرت بيدها وهي تتلمّس وجهي فمدت يدي من دون أن أشعر إلى وجهها لأتلمّس.. لأرى.. ليتلاقى قلبانا..

وغزا وجهها الجميل قلبي.. بل كلّ كياني..

وأخذت أناملي ترسم صورتها داخل وجداني..

هذا الشعر الحريري الناعم..

هذا الجبين الصغير..

هذا الأنف الدقيق..

هذه العينان الواسعتان..

هذا الوجه الدائري..

هذا الفم الد...

- هيييييه.. باسم.. أين أنت؟

أخذت شهيقا عميقا من هواء البحر لأنعش به نفسي..

- هييه.. هل أخذك النوم منّي؟ ماذا حدث؟

سمعت صوتها المرح الذي أخرجني من شرودي وذكرياتي فضممتها إليَّ وأنا أقول:

- لقد كنت معكِ يا حبيبتي أتنسّم عبيرك وأهيم بخيالي في جمالك.

أغمضت عينيها في نشوة وهي تذوب في كلماته وتقول:

- كم أحبّك يا باسم.. كم أحبّك.. وسأبقى أحبك طوال العمر.. كنت أتمنّى أن.. أن أكون في أحسن صورة حتى أسعـ...

- حبيبتي، أنتِ في أكمل صورة وأنا في قمة السعادة ما دمتِ معي وحبّك سيبقى في قلبي طوال العمر.

وضعت رأسها على كتفيه لتستكين وهي تدعو الله - عزّ وجل - أن يديم عليها حبّها، بينما هو أخذ يتنشّق عبير البحر وإن كان هذه المرّة قد اختلط بشيء آخر..

اختلط ببعض من.. الخوف.

-٣-

العاصفة

أنا سعيد!!

يا لها من مشاعر جميلة تلك التي أشعر بها.. أنا سعيييييييد..

سعيد بزوجتي وحبيبتي..

سعيد بالمكان الذي أنا به..

السماء.. البحر.. الزوجة الحبيبة.. الحبّ الذي يملأ ثنايا قلبي..

أنا في نعمة عظيمة!

اللهم لك الحمد والشكر على ما أعطيتني إياه من نعم!!

أيام كثيرة مرّت، وعلى الرغم من ذلك الشعور بالخوف الذي كان يعتريني فإنّني ما إن لامست أرض أول مدينة سياحية، مدينة كريت باليونان، حتى ذهب كل الخوف منّي..

كانت العصا التي لا تفارقني تنقل لي كلّ شيء تراه..

صديقي هيثم يملأ الجوّ حولنا بالضحك والسرور وهو يصف بصورة رائعة تلك المباني والتماثيل والمدينة الرائعة..

مررنا أيضا على مدينة روما.. كم هي رائعة بطرقها ونظافتها وآثارها ومبانيها التي تحمل عبق الماضي..

«رجّعوني عينيييك لأيامي اللي رااحت..»..

أمّ كلثوم، ذلك الصوت الشجي العذب تشدو برائعتها «انت عمري»..

وتنساب كلماتها الرائعة لتملأ سطح الباخرة ولتحيط بي هالة من السرور والحبّ والدفء والحنان الذي أستمدّه من حبيبتي التي تجلس بجواري، بينما تلتمع النجوم أعلانا وتغمرنا بنورها اللامع وأشكالها الرائعة..

«علّموني أندم على الماضي وجرااااحه»..

أنا أندم على كلّ يوم عشته من دونك يا حبيبتي..

هكذا همست في أذنها وأنا أضمّها إليَّ لتقول:

- بل أنا التي أندم على أنّني لم أقابلك منذ أن فتحت عينيَّ على الحياة..

«اللي شفته.. قبل ما تشوفك عينيّ.. عمر ضايع.. يحسبوه ازّاي عليّ.. انت عمرييي»..

- إيمان.. أحبك.. أحبك..

- أنا لو تمنّيت الحياة لن أتمنّاها إلا لكي أكون بجوارك.. حولك في كل مكان!!

وضعت رأسها على كتفي واحتوتني بين ذراعيها وهي تهمس بحب تغلغل إلى قلبي:

- بل أنا التي أتمنّى أن أعيش بجوارك وأنتهل من نبع حبّك وحنانك.
احتوتني كلماتها وكلمات الرائعة أم كلثوم وتلك الأنغام الساحرة و...
- لاااا مش ممكن، روميو وجولييت؟ لا ممكن يكون عنتر وعبلة؟
ميّزت صوت صديقي المرح هيثم وهو يلقي بكلماته هذه، فقلت وأنا ألتفت إليه:
- لا، بل إيمان وباسم.
ثم أشرت إليه قائلا في مرح:
- وأنت شيبوب مفرّق الجماعات والأحباب.
أخذنا نضحك سويا قبل أن يقول لي:
- باسم.. لقد وعدتك بصورة ليس لها مثيل وطوال الأيام الماضية وأنا أفكّر فيها حتى جاءتني تلك الفكرة الرائعة.
ابتسمت قائلا:
- نعم.. نعم.. أعلمها.. ستصوّر أحذيتنا فقط.
ضحك قليلا وقال:
- هي فكرة جيّدة، لكن عندي الأفضل.
سكت قليلا وكأنّه يجمع أفكاره ثمّ قال في لهفة:
- تيتانيك.. هذا الفيلم الرائع وأبطاله وقصته.. هل تتذكّر مشهد الحبيبين عند مقدّمة السفينة؟
- نعم.. أتذكّر هذا المشهد!!
ظهر الحماس على صوته وهو يقول:
- هذه هي الصورة..
المشهد نفسه وخلفكما سطح الباخرة بكامله وخلفكما قرص الشمس يحيط بكما..
أمّا أنتما فستكون الصورة لكما مختلفة، ستكون مجسّمة وبارزة عن

المشهد..
ستظهر كل تفاصيلكما.. ملامحكما.. ضحكتكما..
ستكون صورة رائعة لأجمل حبيبين على سطح الباخرة..
اعتدلت في اهتمام وأنا أقول ببعض القلق:
- لكن كيف ستقوم بهذا؟ فعلى ما أتذكّر أن المشهد يصور البطل وهو يمسك البطلة وهي تفرد ذراعيها وهما يقفان في مقدّمة السفينة وأمامهما البحر..
- كيف ستأخذ الصورة حينئذٍ؟
ابتسم صديقه وهو يقول في ثقة:
- لا تخَف يا صديقي، كل شيء مرسوم بدقّة وأنا سوف أؤمّن نفسي جيّدا.
ثمّ سمعت صوته وهو يبتعد قائلا:
- نَم جيّدا فلا أريد ملامح وجهك وعليها هذا الإرهاق الذي أراه الآن.. ميعادنا السابعة غدا.. سلاااااام.
وفي تمام الساعة السابعة مساء كنت أقف أنا وحبيبتي فوق مقعد خشبي بمحاذاة حاجز الباخرة؛ حيث سيأخذ الصورة من جانب الباخرة لوجود الشمس خلفنا في هذا الوقت ثمّ سيقوم بتركيبها على مقدمة الباخرة..
كان هيثم يقف على لسان خشبي أمامنا وأسفله البحر بينما يصرخ في السيّاح الّذين تجمّعوا ليشاهدوا هذا المشهد وهذا الجنون..
كنت أسمع صوته الصارخ قبل أن يهدأ قليلا وهو يقول لي:
- هيّا يا صديقي، أجهز؛ فالشمس ستتوسطكما بعد قليل، وأبعد عن وجهك هذا التوتر.
ثمّ أشار هيثم بيده لأسمع هذا الصوت الهادئ الذي تسلّل إلى أذني..
كان صوت المغنية سيلين ديون في الأغنية نفسها التي كانت مع الفيلم

وصمت الجميع وهم منبهرون بما يرونه أمامهم ومخاطرة صديقي التي يقوم بها..

- حبيبي، لا داعي للخوف.. هيّا نأخذ الصورة لنرتاح بعدها..

استسلمت لكلماتها ومددت يدي لأحتوي خصرها بينما أشعر بيدها وهي تعلو بجانبها وأخذت نفسا عميقا من هواء البحر المنعش الذي هدّأ الكثير من قلقي وعلا صوت سيلين ديون تشدو بالكلمات الرائعة وأنا أستسلم لذلك الصوت وأترجم كلماتها وأهمس بها في أذن حبيبتي:

Every night in my dreams

كل يوم في أحلامي..

I see you، I feel you،

أراك وأحس بك..

That is how I know you go on

وبهذه الطريقة أعلم أنني سأستمر.

Far across the distance

بعيدا خلف المسافات..

And spaces between us

والتباعد الذي بيننا..

You have come to show you go on

لقد أتيت إليَّ لتريني كيف تستمر..

Near، far، wherever you are

قريبا أو بعيدا وأينما كنت..

I believe that the heart does go on

أنا أومن بأن القلب سيستمر بالخفقان..

Once more you open the door

مرة أخرى ها أنت تفتح الباب..

And you›re here in my heart

وها أنت هنا في قلبي..

And my heart will go on and on

وقلبي سيستمر ويستمر..

Love can touch us one time

الحب من الممكن أن يمسنا مرة واحدة..

And last for a lifetime

ويستمر من أجل باقي الحياة..

And never let go till we›re gone

دون أن يفارقنا حتى نموت..

Love was when I loved you

الحب كان عندما أحببتك..

One true time I hold to

لحظة الحقيقة عندما ضممتك..

In my life we›ll always go on

لتدخل حياتي؛ حيث سنبقى معا للأبد..

Near، far، wherever you are

قريبا أو بعيدا وأينما كنت..

I believe that the heart does go on

أنا أومن بأن القلب سيستمر بالخفقان..

Once more you open the door

مرة أخرى ها أنت تفتح الباب..

And you›re here in my heart

وها أنت هنا في قلبي..

And my heart will go on and on

وقلبي سيستمر ويستمر..

‹You›re here‹ there›s nothing I fear

أنت هنا، ولا شيء أخشاه..

And I know that my heart will go on

وأنا أعلم الآن بأن قلبي سيستمر بالخفقان..

We›ll stay forever this way

سأبقى للأبد كذلك..

ذُبت أنا وإيمان في كلّ هذا الحبّ الذي حولنا حتى لم أشعر بشيء سوى بحبيبتي التي أحتويها بين يدي وبين قلبي..

ومن برج الباخرة كان يقف القبطان ومساعدوه وهم ينظرون إلينا عندما قال أحد المساعدين:

- يا لهما من عاشقين، إن الحب يرتسم على ملامحهما كأحسن ما يكون!!

ثم التفت إلى المصور وتابع:

- يا له من مجازف هذا المصوّر، كيف سمحت له بهذا سيدي القبطان؟

ابتسم القبطان وهو يقول:

- لقد ألحّ في الطلب بشكل لم أجد سوى الموافقة عليه، كما أنه وعدني بتأمين نفسه جيّدا، وها هو يؤمّن نفسه بذلك الحبل المربوط حول وسطه، حتى لو وقع سيقع داخل زورق النجاة أسفله والّذي لا يراه الجميع..

الحقّ لقد اختار بقعة تصويره بذكاء و...

- سيدي القبطان.

قطع حديثه وهو يلتفت إلى مساعده الذي دلف إلى المكان ووجهه يحمل الكثير من القلق:

- ماذا بك؟

تكلّم المساعد في قلق قائلا:

- لقد تسلمت هذه الإشارة منذ قليل وهي تقول إننا على أعتاب عاصفة..

أخذ القبطان الإشارة منه ليقرأها بتمعّن وهو يقول:

- يا إلهي، إنها عاصفة شديدة.

ظهر القلق على المساعدين حوله وأحدهم يقول:

- هل نخبر الركّاب سيدي القبطان؟

ارتسمت علامات التفكير على وجه القبطان وهو يتحرّك في اتجاه نافذته ويتابع بعينيه ذلك المشهد الذي قرب على الانتهاء وهو يومئ برأسه بالإيجاب لمساعديه الّذين تحركوا في سرعة، بينما عاد يتابعنا بنظره وأنا ما زلت في موضعي ولكن لست بمشاعري الأولى، فلست أدري لِمَ كلّ هذا الخوف الّذي عصف بقلبي فجأة، ولا أدري لِمَ أدرت رأسي لأوجّهه إلى القبطان في شرفته، وآلذي عقد حاجبيه في دهشة عندما شاهدني أنظر إليه مع أنّني لا أراه..

وعدتّ أدير رأسي لحبيبتي وقد تلاشت الفرحة تماما وأنا أتشبّث بها بقوّة..

بقوّة أملاها عليَّ قلبي وإحساسي بأنّنا في خطر..

* * *

- أرجوكم الانتباه..
تردد صوت القبطان داخل أرجاء الباخرة وداخل الكبائن والجميع يرهفون أسماعهم إليه وهو يتابع:
- إنّني آسف أن أخبركم أن الباخرة في طريقها للتعّرض إلى.. عاصفة.
سكت لحظات تصاعدت فيها دقات القلق والخوف من القلوب وهو يتابع:
- عاصفة.. شديدة!!
لكنّنا سنحاول - بقدر الإمكان - الابتعاد عنها؛ لذلك أرجو منكم الالتزام بتعليمات البحّارة والبقاء داخل الكبائن وعدم الصعود نهائيا لسطح الباخرة..
أخيرا، أحب أن أعلمكم أن جميع طاقم الباخرة مدرّبون على التعامل مع هذه المخاطر وأن الباخرة مصمّمة لمواجهة ما هو أعنف من تلك العاصفة؛ لذلك أرجو منكم الالتزام، وشكرا لكم..
حلّ السكون على جميع من في الباخرة.. سكون لا يُسمع فيه سوى صوت صفير الرياح التي بدأت تشتدّ.
سكون لا يعلو عليه سوى صوت القلوب الخائفة المرتجفة من غضب الطبيعة.
سكون حذر.. مترقّب.. خائف.. يخرج من بين أرجاء كبائن الباخرة..
وفي إحدى تلك الكبائن كنت أساعد إيمان على ارتداء سترة النجاة، وهي تقول في خوف واضح:
- باسم.. إنّني.. إنّني خائفة جدا.
ربتّ على كتفها وأنا أتحسس مكان أربطة سترة النجاة لأحكم غلقها وأقول:
- لا تخافي يا حبيبتي ما دمت بجوارك..

ارتديت سترتي وجلست بجوارها لتضع رأسها على كتفي وهي تبكي بصوت مكتوم، ما زاد من توتري وخوفي عليها، فأخذت أحدّثها لعلّ الحديث يلهيها عمّا نسمع من أصوات الرياح والأمواج خارج الباخرة، التي بدأت تزداد وتزداد معها حركة الباخرة يمينا ويسارا..

وفي الخارج كانت السحب تتراكم وتظلل كل واحدة الأخرى لتتوارى خلفها النجوم والقمر وكلّ ما هو مضيء وينتشر الظلام الدامس ليملأ المكان بلون أسود بهيم..

الرياح كانت تتلاعب بالموج فتثيره ليرتفع معها أو ينخفض عائدا ليضرب البحر بقوّة، أو يجعل موجتين تتصارعان فتقف إحداهما كالطود العظيم ثمّ تنحسر بقوّة لترتفع الأخرى، وبينهما كانت الباخرة إخناتون مثل الطفل الصغير في يد عملاق يتلاعب به ولا يملك معه سوى الصراخ والأنين..

الأمواج العاتية ما إن تنكسر إحداها على جدار الباخرة حتى تتوالد أخرى وأخرى وأخرى.

السحب المتراكمة فوق بعضها أرسلت هي الأخرى غضبها على هيئة سيل من الأمطار..

أخذ يتساقط هو الآخر على الباخرة، ما جعل القبطان يقول لمساعده في قلق واضح:

- الأمطار شديدة، والله وحده يعلم ما سنواجهه فيما بعد الآن..

اقترب مساعده «نيرو» وهو يتابع القبطان الذي أشار إلى خارطة أمامه قائلا:

- إذا ساعدنا الله - عزّ وجل - في تخطّي هذه العاصفة سنكون في مقابلة شواطئ مدينة نيس في فرنسا، وهذا عند أول ضوء للفجر، نتمنّى أن نصمد هذه المدّة.

قال مساعده في قلق وهو يتمسّك بإحدى زوايا الطاولة التي أمامه:

- نتمنّى ذلك، ونتمنّى ألا تحيد بنا العاصفة عن اتجاهنا وتبعدنا عن الشاطئ.

التفت إليه القبطان قائلا:

- نتمنّى ذلك يا نيرو، ونأمل أن يساعد!!

«دومممممممممممممممممممممم»..

انطلق صوت الرعد في تلك اللحظة ليقطع القبطان حديثه وهو ينظر إلى السماء ليرى ذلك الخيط الأبيض المتشعب الذي انطلق من وسط السحب، ذلك الخيط المميّز للبرق، الذي تشتّت في أجواء السماء بينما أفكار كلّ من على الباخرة تلتقي في كلمة واحدة:

العاصفة.. بدأت!!

* * *

- ما هذا؟

انتفضت إيمان في عنف من فوق الفراش ليمسك بها باسم قائلا:

- اهدئي يا حبيبتي.. إنّه صوت الرعد فقط.. اهدئي!!

ألقت بجسدها الذي يرتجف بقوّة بين ذراعي زوجها وهي تقول في رعب:

- سو... سوف نـــ... نـــ... نغرق يا باسم.. سوف نمو...

- لاااا..

قاطعها بقوّة وتابع في حزم:

- لا تقولي هذا!!

أخذت تنتفض من البكاء وهو يضمّها ويملّس بيده على رأسها متابعا في هدوء:

- الموت والحياة بيد الله وحده، ولا يوجد أحد يعلم متى يأتيه الموت، والحمد لله على ما نحن فيه.. ادعي الله - عزّ وجل - أن يفرّج كربتنا.

أخذت تدعو الله في صمت وقد استراح قلبها بذكر الله فهدأت قليلا، بينما كنت أوجه عصاي فيما حولي لتنقل لي كل ما تشاهده لأرسم صورة لما نحن فيه..

كان صوت الرياح يأتيني من الخارج مختلطا بصوت الرعد الذي يزداد شدّة كلمّا مرّ الوقت، ما جعل الخوف يدقّ على بابي..

كنت خائفا على محبوبتي من هذه العاصفة التي تتلاعب بنا..

لا بد أن أحميها بكلّ قوتي.. أحميها بروحي وحياتي؛ فهي كل شيء عندي.

أغمضت عيني بقوّة وأنا أتذكّر كل ما كنت أفعله كل صباح عندما كنت أتجول في الباخرة مع صديقي هيثم..

كنت أرسم صورة في ذهني بكلّ تفاصيل الباخرة..

أماكن الصعود والهبوط.. أماكن الحجرات.. القاعة.. سطح البا...

«دومممممممممممممممم»..

تمسّكت إيمان بي بشدّة عندما ارتفع صوت الرعد كألف ألف صوت ومعه اهتزّت الباخرة بشدّة ونقلت لي العصا أن الماء غطّى نافذة الكابينة فانتفض قلبي بين ضلوعي؛ لأنّني تخيّلت الباخرة تغرق، إلا أن العصا أخبرتني أن الماء انحسر ثانية، فحمدت الله أن إيمان لم ترَ هذا المشهد وإلا كانت قد أصيبت بالرعب.. الرعب الذي سكن كل فرد على سطح الباخرة حتى القبطان قال بصوت قلق:

- العاصفة تزداد شدّة، والله أعلم إلى متى تستطيع الباخرة المقاومة.

ثمّ التفت إلى مساعده نيرو وتابع:

- نيرو، هل تمت على الركاب جميعهم وأنّهم داخل الكبائن وأن كلا في مكانه؟

قال المساعد وهو يتابع حركة الأمواج العالية من زجاج قمرة القيادة:

- نعم يا سيّدي.

التفت القبطان إلى أجهزة الباخرة يتابع عملها عندما دلف أحد البحّارة إلى القمرة وهو يقول في هلع شديد:

- سيّدي القبطان.. سيّدي القبطان!!

التفت إليه في قلق بينما هو يتابع والماء يتساقط من كلّ أجزاء جسده:

- الدور السفلي يا سيدي.. الركّاب جميعهم خارج كبائنهم ويريدون الصعود للأدوار العليا.

رفع القبطان حاجبيه في دهشة قائلا:

- لماذا؟

قال المساعد وهو يمسح بعض الماء من فوق عينيه:

- يقولون إن مستوى الماء مرتفع وإن الباخرة ستغرق.

عقد حاجبيه وهو يفكّر في هذا الوضع الخطير، بينما كانت الكبائن في الدور السفلي مفتوحة والركاب خارجها يملأون الطرقة بينما البحارة

يقفون على بابها المغلق يحاولون تهدئتهم، إلا أن الرعب الذي ملأ وجوههم والخوف الشديد جعلهم لا يستمعون لأحد وهم يصرخون بكل اللغات:

- افتحوا الأبواب.. افتحوا الأبواب.. الباخرة تغرق.. افتحوا الأبواب!!

كان الصراخ يصل إلى مسامع باسم وإيمان، التي تشبثت به بقوّة وملامح الرعب والفزع تطلّ منها وهي تقول:

- باسم.. الباخرة تغرق.. الجميع بالخارج..

نحن سنموت ولا أحد سينقذنا..

باسم، نحن عاجزان وسنمو...

- إيمان، اهدئي.. أرجوكِ يا حبيبتي لا تخافي هكذا..

ردّت عليه ببكاء شديد:

- كيف؟ كيف لا أخاف ونحن لا نرى ولا أحد سيساعدنا؟

ثمّ أمسكت بيده وهي تجذبه إلى الخارج قائلة:

دعنا نخرج يا باسم.. دعنا نحاول النجاة.

لم أكن أعلم ماذا أفعل، إنّني أعلم أن الباخرة لا تغرق.

لا توجد مياه في الأرضية، والباخرة أشعر بها وهي تتحرّك والعاصفة ما زالت ليست بالقوّة التي تُغرق باخرة كبيرة كهذه.. لكن!!

تلك الأصوات التي تأتي من الخارج، ما سببها؟

آه لو كنت مبصرا كنت أ...

- باسم، هيّا بسرعة.. أرجوك.

أخرجه صوتها من شروده بينما كانت تجذبه وهي تتحسّس الحائط بيدها إلى باب الغرفة، فقال لها:

- حبيبتي، تشبّثي بي جيدا ولا تتركي يدي مهما حدث.

لم تكن محتاجة إلى تلك الكلمات؛ فقد تشبثت به بقوّة، بينما صرخات

الركّاب تهز مسامعهما أمام باب الكابينة حتى اصطدم بأحد الركاب فقال باسم:

- آسف.. ماذا حدث؟

ردّ عليه في غضب:

- ماذا حدث؟! هل أنت أعمى؟ ألا ترى المياه وهي تحيط بنا من كل اتجاه؟ إن الباخرة تغرق وهم يمنعوننا من الصعود إلى أعلى.. إنّهم يريدوننا أن نموت مثل الجرذان.

شعر باسم باختناق وضيق بصدره عند سماع كلماته هذه، إلا أن شعوره بالخوف على حبيبته وإحساسه بالمسئولية جعلاه يمسك يدها بقوّة ويحاول اختراق الصفوف مركّزا على صوت البحّارة الّذي يأتيه من نهاية الطرقة وقد عقد العزم على الصعود إلى أعلى و...

اهدأوا!!

دوّت تلك الكلمة عبر السمّاعات المنتشرة في الطرقة بصوت القبطان، الذي تابع في صرامة واضحة:

- استمعوا لي جيّدا.

وقف الجميع عن الحركة وهم يتطلّعون بأعينهم إلى السمّاعات في قلق وتحفّز.

- الباخرة لا تغرق ولن تغرق بإذن الله..

إن ما شاهدتموه من مياه علت على نوافذ الكبائن بسبب علو الموج عن مستواه الطبيعي، وهذا أمر طبيعي نواجهه مع هذه العاصفة الشديدة ولا يوجد أي خطر من هذا!!

تسلّلت بعض الطمأنينة إلى قلوب الركّاب عندما تابع القبطان بشدّة:

- إن الخطر وأكبر الخطر هو ما تفعلونه الآن؛ فنحن نفقد توازن الباخرة بسبب تجمّعكم في مكان واحد هكذا..

ثمّ خفضت شدّة صوته وهو يتابع:
- أرجوكم، الزموا الهدوء وعودوا إلى كبائنكم وادعوا الله أن يوصلنا جميعا بالسلامة، وأعدكم أننا نفعل كل ما يلزم لذلك..
بدأ الركاب يعودون إلى غرفهم وأنا أمسك يد حبيبتي محاولا تحديد اتجاهي و...
«دومممممممممممممممم».
انطلق صوت الرعد ومعه ارتفعت العيون جميعها إلى السماء و... اهتزّت الباخرة!!
اهتزّت بقوّة وتأرجحت يمينا ويسارا..
اصطدم الركّاب بعضهم ببعض..
شعرت بمن يدفعني من الخلف ثمّ يصطدم بي بقوّة جعلتني أندفع إلى الحائط لأصطدم به بقوّة، ثم شعرت بإيمان وهي تصطدم بي هي الأخرى فتركت العصا من يدي وأنا أمسكها حتى لا تقع أو تصطدم بالحائط..
صوت القبطان انقطع مع هذا الارتجاج الشديد للباخرة..
وبينما أُمسك بيد إيمان محاولا الوصول إلى الكابينة التقطت أذني ذلك الصوت.. صوت ضئيل، لكن سمعي الحاد التقطه وميّزه من بين الأصوات والصرخات.. صوت جعل الرعب يملأ قلبي..
ويبدو أن إيمان ميّزته هي الأخرى؛ فقد شعرت بها وهي ترتجف بقوّة وتحاول أن تتكلّم، لكن الصوت لا يخرج من فمها..
ولم تمرّ لحظات حتى صمت الجميع فجأة وهم ينظرون في اتجاه واحد..
اتسعت العيون جميعها والرعب يرتسم على الوجوه..
و...
اختلطت الأصوات..
صوت الصراخ...

«آآآآآه هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ»..
وصوت هدير الماء المندفع نحونا بقوّة..
« شششششششش»..
وأخيرا صوت الرعد..
«دووووووممممممممممممم»..
الرعب هو الشعور المسيطر على الجميع..
فمن شاهد الماء وهو يندفع في اتجاهه حتى ارتجف قلبه وسط الضلوع خوفا ورعبا..
ومن سمع هذا الصوت القوي المندفع نحوه إلا وقد ارتعدت فرائسه خوفا ورعبا..
والكلّ قد امتلأ عقله بفكرة واحدة.. الباخرة تغرق!!
إيمان المتشبّثة بباسم شعرت به وهو يدفعها بقوّة ودهشت عندما شعرت بنفسها تمرّ من باب الحجرة لتسقط مباشرة فوق الفراش الذي كوّرت جسدها فوقه وهي خائفة مرتعبة تصيح باسم «باسم» الذي كان يقف على باب الحجرة متمسّكا بأحد قوائمه والماء يدفعه بقوّة و... هدأ كلّ شيء.
كما بدأ فجأة انتهى فجأة.
الماء عاد ينحسر عنهم وعمّ السكون المكان إلا من أصوات الخائفين..
وصوت إيمان التي كانت تهتف باسم «باسم» الذي ما إن سمع نداءها حتى أسرع إليها، ومن صوتها ميّز مكانها فأسرع يحتويها بينما هي تنتفض من الماء البارد الذي غرّق ملابسهما..
- أرجوكم الهدوء، هذه موجة عالية وقد عبرناها بسلام..
الباخرة لا تغرق وهي قادرة على الصـ...
- أ... أخر... أخرجني من... من... هنا..

قطعت إيمان حديث القبطان بقولها هذا وهي ما زالت ترتجف وتتابع:
- أرجوك يا باسم أخرجني من هنا!!
كان بكاؤها يمزّق نياط قلبي وأنا لا أدري ماذا أفعل.
إن حديثه يقنعني، لكن ما أسمعه عكس هذا..
الجميع يتدافعون بقوّة ليخرجوا من الدور الأول، بينما البحّارة يقفون لهم بالمرصاد..
- باسم، سوف نموت غرقا.. أنا خائفة.. خائفة..
بصوت مليء بالدموع وبالخوف والعجز سمعتها فعقدت حاجبي في شدّة وأنا أقول لها/
- سأخرجك يا إيمان!!
سأخرجك من هنا سالمة، حتى لو كان هذا آخر عمل أقوم به.
أمسك بيدها ثمّ خرج من الكابينة ليقابله أجساد الركّاب وهتافاتهم..
وبدلا من الاتجاه معهم اتخذ الاتجاه الآخر، كان يمرّ بينهم ويصطدم بهم وهو ممسك بيد إيمان ويتخيّل الممر أمامه ويده الأخرى تدفع من أمامه حتى يستطيع المرور..
كان في قمّة تركيزه وإحساسه وسمعه وهو يتجه لنقطة ما..
كان يعدّ الخطوات التي حفظها طوال الأيام السابقة وهو يتجه إلى حجرة الطعام الخلفية.
كان الزحام قليلا؛ فقد ابتعد عن الأبواب الرئيسية.. خطوة أخرى وسأكون أمام الباب..
تحسست الجدار بيدي و... هذا هو!!
دفعت الباب بقوّة لأدلف إليه، بينما إيمان تقول لي:
- باسم، إلى أين نحن ذاهبان؟
قلت لها وأنا أتحسسّ الحائط متوجها إلى نقطة ما:

- حبيبتي، لقد أقسمت أن أخرجك من هنا؛ فأنا لا أتحمّل أن أراكِ تدمعين وتبكين هكذا..

سمع صوت نحيبها فتوقّف لحظات ليلتفت إليها وهو يمدّ يده إلى عينيها ويزيل دمعها قائلا بكل حب:

- أنا لن أتركك أبدا يا حبيبتي.

أمسكت بيده وهي تحاول جاهدة أن تتماسك وهي تقول:

- أنا أحبك جدا يا باسم ولن أتركك أبدا.

ظلّ واقفا لحظات حتى شعر بها وهي تهدأ قليلا ثمّ أمسك يدها وهو يقول:

- نحن الآن في حجرة إعداد الطعام ويوجد بها باب يستخدمه العاملون للصعود للغرف العلوية.

كان يتحدّث ويده تتحسّس الجدار حتى قال:

- هذا هو.. سنخرج منه إلى حجرة صديقي هيثم و..!!

توقّف عن الحديث فجأة وهو يعقد حاجبيه في قوّة بينما يده تدير مقبض الباب بقوّة ولا يستجيب له..

تركتُ يدها وأنا أتحسس الباب من كلّ جوانبه، قد يكون مغلقا بمزلاج مثلا..

لا شيء.. أخذت أدفعه بكتفي بقوّة وإيمان تقول لي:

- باسم.. ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

قلت لها وأنا أحاول دفع الباب:

- مغلق.. الباب مغلق.

حاولت مساعدتي ومرّ الوقت وامتزج عرقنا مع الماء مع يأسنا ولم ننجح في فتحه..

حتى سمعتها تقول في يأس وهي تترك جسدها ينزلق إلى أسفل:

- يكفي يا باسم.. لا فائدة.. لا فائدة..
أخذت أحاول ثانية حتى أعياني التعب، فسقط جسدي بجوارها والعرق يغمر جسدي..
كنت أشعر بالعجز وقلّة الحيلة والخوف على حبيبتي..
شعرت بغصّة ومرارة في حلقي ولم أستطِع الحديث ولم أشعر إلا بدمعي وهو يسيل على وجنتي حتى شعرت بيد حبيبتي وهي تتحسس وجهي وتقول في خوف وقلق:
- باسم.. حبيبي.. ماذا بك؟ أتبكي يا حبيب العمر؟ أتبكي من أجلي يا حبيبي؟
قلت لها وأنا أحاول أن أتماسك:
- كم.. كم أحبك وأخاف عليكِ..
لو كنت أستطيع عمل أي شيء، أي شيء، لقمت بعمله من أجلك أنتِ..
آه يا حبيبتي لو لم أكن أعمـ...
وضعت يدها على فمه قبل أن يكمل الكلمة وهي تقول:
- لا.. لا تقُل هذا عن نفسك، ولا تقُلها أبدا.
يكفي يا حبيبي أنّنا معا حتى لو متنا ستصعد روحانا معا و...
- تصعد؟
وجدته يهتف بتلك الكلمة وهو يقف ويعيدها في حماس:
- تصعد.. لقد قلتِ الحلّ يا حبيبتي، سنصعد إلى أعلى.
وقفت بجواره وهي تقول بدهشة:
- لكن يا باسم المصاعد في الجهة الأخرى وأكيد أنها معطّلة؛ لأن الآخرين لم يستعملوها.
قال لها وهو يحاول تذكّر شيء ما بينما يده تتحسّس الجدار:
- أعلم هذا، لكنّنا سنستخدم مصعدا آخر.

ردّدت بدهشة:

- مصعد آخر.. هنا؟ في حجرة الطعام؟

قلت لها وأنا ما زلت أتحسّس الجدر التي بجواري:

- نعم، إنه صندوق متوسط الحجم يضع فيه العاملون الطعام لخدمة الأدوار العليا.. لقد قال لي صديقي هيثم عنه عندما استمعت لصوته الغريب و...

تابعت والأمل يملأ وجهي:

- هذا هو.. هذا هو يا حبيبتي.

اقتربت منّي بينما أتحسّس جداره الداخلي وأضغط عليه لأعلم هل سيتحمّل ثقلنا أم لا..

- هيّا.. هيا يا حبيبتي، سأساعدك في الصعود.

قالت في دهشة وخوف:

- وأنت؟

قلت لها:

- ستصعدين أنتِ ثم أتبعك أنا.

أمسكت يدي بقوّة وهي تقول برعب:

- لاا.. لا يا باسم، لن أصعد وحدي.. إمّا أن نصعد معا وإما أن نبقى معا!!

شعرت بخوفها الشديد فعدت أقيس بيدي مساحة المصعد واضغط عليه بقوّة للتأكد من قوّة تحمله لنا ثمّ توكّلت على الله وساعدت إيمان على الصعود، ثمّ كوّرت جسدي بجوارها وأنا أتحسّس الجدار المجاور حتى وجدّت الزرّ فضغطت عليه وقلبي يملؤه الرعب خوفا ألا يعمل، لكن الحمد لله كان يعمل..

وبدأت رحلته ببطء إلى أعلى وأنا أتمسّك بيد حبيبتي..

بينما أكاد أسمع صوت خفقان قلبها الذي كان ينبض في عنف..
ينبض وينبض كنبض تلك الأمواج المتتابعة التي تنكسر على سطح الباخرة فتميل معها ملقية الرعب على كل من يسكنها، حتى القبطان الذي التفت في قلق إلى مساعده وقال:
- نيرو.. ما أخبار الطابق السفلي؟
قال في أسف واضح:
- للأسف سيدي، تلك الموجة العالية التي اندفع ماؤها إلى أسفل جعلتهم يشعرون بالرعب أكثر، لكنّ البحارة ما زالوا يحاولون تهدئتهم.
زفر القبطان زفرة حارة خرجت من صدره كدخان حار ما لبث أن تشتّت بسبب برودة الجوّ، ثمّ قال:
- إن الموقف يتعقّد أكثر ولن يرتاح أحد إلا بعبورنا هذه العاصفة.
أخذ يجول داخل الكابينة وقد علت عليه ملامح التفكير ثمّ قال:
- أغلقوا جميع المداخل والمخارج المؤدية إلى الطابقين الثاني والثالث حتى لا يحدث اختلال في توازن الباخرة، وأغلق الإضاءة أيضا واقطع الكهرباء عن كل القطاعات التي لا تُستعمل مثل قاعات الطعام والمصاعد بجميع أنواعها وقمرات النوم حتى تتوافر لنا طاقة نسرع بها أكثر ونعبر بها العاصفة.
انطلق مساعده لتنفيذ أوامر القبطان وهو يحكم غطاء رأسه ويتشبّث بقوّة بأيدي زملائه حتى لا تجرفهم المياه أو الريح من فوق سطح الباخرة، حتى إنه لم ينتبه إلى تلك الإضاءة الحمراء التي تعلو بوّابة مصعد الطعام التي تشير إلى أنه يعمل بينما كان باسم وإيمان داخل المصعد وأسنانهما تصطدم ببعضها البعض من البرد القارس ومن الخوف الذي ملأ جوانبهما، بينما باسم يرهف سمعه بشدّة إلى ما حوله والقلق يكاد يعصف به وهو يتساءل:

- لماذا لم يتوقّف المصعد؟

إن رحلته لا تستغرق أكثر من دقيقة، وبسبب الحمل الثقيل تزداد إلى اثنتين أو ثلاث ما بين الطابقين، إلا أن الوقت يمرّ والمصعد ما زال يتحرّك إلى أعلى! والخوف من تلك الأصوات التي أسمعها والتي تزداد قربا، أصوات الرياح والأمطار التي تدقّ على سطح الباخرة والتي تلقي الرعب بداخلي و...!!

توقّف المصعد!!

توقّف المصعد ومعه توقّفت أنفاس كل من باسم وإيمان وهما يرهفان بأسماعهما لتلك الأصوات التي تأتيهما مكتومة، لكنّها مسموعة مخيفة..

وبدأ باب المصعد ينزلق ببطء ليفتح لهما فرجة صغيرة.. ومعها هبط قلب باسم في قدمه رعبا..

أما إيمان فقد اتسعت عيناها فزعا وارتجف جسدها وهو يستقبل تلك الرياح الشديدة التي كانت تمرّ وتزيد كلما انفتح باب المصعد أكثر..

فالمصعد لم يتوقّف عند الدورين الثاني ولا الثالث بل صعد بهما إلى.. سطح الباخرة..

سطح الباخرة بكلّ ما به من أمطار ورعد وبرق ورياح!!

بكل أمواجه الهائلة..

بكل غضب الطبيعة ورهبتها..

والتفّ حول باسم وإيمان ظلام دامس..

ظلام البحر.. وظلام السماء.. وظلام العين..

وانطلق الرعد بصوته ليملأ جوفيهما برعب لا حدود له..

«دومممممممممممممممممممممم»..

***

- «آه هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ»..

انطلقت صرخة إيمان تشقّ عنان السماء وتعلو على صوت العاصفة تحمل بين طيّاتها الخوف والرعب، بينما جسدها بأكمله يرتجف بسبب الرياح الشديدة والأمطار، ما جعل باسم يقول في توتر شديد:

- إيمان.. إيمان.. اهدئي.. أرجوكِ اهدئي.

وصل إليه صوتها المرتجف ومعه صوت أسنانها التي تصطدم بعضها البعض..

- باسم.. إنّنا.. إنّنا.. على السطح.. سط... سطح الباخرة.

قال لها وهو يتحرّك بسرعة:

- أعلم.. أعلم حبيبتي.. فقط اهدئي وسنعود إلى أسفل.

كان يتكلم وهو يميل بجسده إلى الخارج ويتحسس بيده الجدار المحيط بالمصعد حتى لمست يده أحد الأزرار فضغط عليه بقوة وهو يعود ليكوِّر جسده بجوار إيمان..

سمع أزيز الباب وهو يستعد للإغلاق فزفر في عصبية وقلق والباب يتحرك ببطء و...

- ماذا حدث؟ باسم.. الأزيز توقف.. باسم..

كان باسم أشدّ قلقا منها عندما لم يصل إلى أذنيه صوت أزيز الباب الذي توقف فجأة في منتصف طريقه ومعه توقف الباب عن الإغلاق.

عقد باسم حاجبيه في قلق وهو يعاود إخراج جسده ليضغط بقوّة على ذلك الزرّ مرّة أخرى وأخرى وأخرى.. ولكن لا شيء!!

ولو قُدِّر لباسم أو إيمان الرؤية لشاهدا الأضواء على سطح الباخرة وهي تطفَأ كلّها ومعها أكثر من نصف الإضاءة على الباخرة ككل.

كان باسم ما زال يضرب على الزرّ بعصبية أكبر، ولكن لا شيء!!

الباب لم ينغلق والمصعد كما هو لم يتحرّك وإيمان تكوّر جسدها المرتجف

وهي تبكي بصوت غير مسموع وعبراتها تسيل بغزارة قد تكون أكثر من الأمطار التي تأتيها من فتحة باب المصعد وهي تسمع صرخات باسم الغاضبة وهو ما زال يحاول ويحاول حتى شعرت بجسده وهو يعود ليجلس بجوارها وقد أنهكه التعب والغضب والخوف والقلق.. ومع هذا شعرت بيده وهي تلتفّ حولها ليضمّها إلى جسده قد تشعر ببعض الدفء، بينما هو يستمع إلى بكائها الذي مزّق نياط قلبه وهو يتساءل:

- يا الله، ماذا أفعل؟

إذا بقي كما هو قد يموت بسبب البرودة الشديدة، وأيضا ارتجاج الباخرة قد يجعل المصعد يقع بنا في أي لحظة.

هل أترك إيمان وأذهب لطلب المساعدة؟

إنّها ومن المؤكد ومع خوفها هذا لن تتركني أذهب وحيدا!!

وخروجها معي في هذا الجوّ العاصف لخطر شديد عليها.

ماذا أفعل يا إلهي؟ ماذا أفعل؟

ضممت حبيبتي إليَّ أكثر أمدّها ببعض الدفء وأقيها شرّ الرياح التي تضرب جسدي، ثم قلت لها وهي ترتعد من الخوف:

- حبيبتي.. إن ما نحن فيه لصعب فعلا علينا، خاصة في حالتنا هذه.. ولا يوجد من ينجدنا ممّا نحن فيه؛ لذلك.. لذلك...

ترددت قليلا وأنا أضمّها أكثر إليَّ ثمّ تابعت:

- لذلك سوف أتركِكِ هنا وأذهب لأحضر من يساعدنا..

شعرت بها وهي تتمسّك بي أكثر وصوت نحيبها يعلو، فقلت:

- حبيبتي.. أنا في أشدّ الحاجة إلى ثباتك وإيمانك بالله و...

أتتني رجفتها الشديدة وعبَراتها الدافئة لتجعل صوتي يتهدّج وأنا أضمّها أكثر وأتابع:

- لا بد.. لا بد أن أجعلكِ في أمان و... ولذلك يجب أن.. أن.. أذهب و...

- خذني.. خذني معك!!

قالتها من بين عبراتها، فقلت لها:

- حبيبتي، إن سطح الباخرة لخطر شديد؛ فالباخرة غير مستقرّة والأمطار والرياح بل الأمواج نفسها أشعر بها وهي تعلو الباخرة..

مسحت دمعها وقالت بإصرار أكثر:

- لن أتركك.. لن أتركك تواجه كلّ هذا من أجلي..

ثمّ عادت دموعها تنهمر وهي تتابع:

- حبيبي.. أرجوك.. خذني.. خذني معك.

لقد تعاهدنا ألا نفترق أبدا.. لقد وعدتني بهذا!!

تشبثت بي أكثر وأنا تشبّثت بها أكثر ودمعنا يحتوي كلّ منه الآخر..

كنت ألعن سوء حظّي وعجزي وقهري..

لحظات كنّا وكأننا ننعى ونرثي أنفسنا قبل أن أفيق وأتمالك شتات نفسي وأنا أركّز وأحاول استعادة كلّ ما خزنّته في عقلي من تفاصيل وإحداثيات المكان..

ثمّ ذكرت الله تعالى وتوكّلت عليه وهبطت من المصعد لتستقبلني الرياح الشديدة والأمطار التي انهمرت عليَّ، إلا أنّني تمسّكت بحافة المصعد وأنا أساعد حبيبتي على الهبوط ثمّ تشبثنا بعضنا البعض ونحن نسير بجوار الحائط نتلمّسه بأيدينا ونستمدّ منه بعض العون وأنا أحاول أن أحدّد مكاننا..

كنت أعلم أن هذا المصعد موجود في المنطقة الخلفية من الباخرة وبالقرب من حمّام السباحة، إذًا فمدخل القمرات أمام حمام السباحة مباشرة، فلو وصلت إلى حمام السباحة ودرت حوله ومن أمام المنطقة التي أخذنا فيها الصورة سنسير إلى المدخل وتحلّ المشكلة.

«دومممممممممممممممم»..

انطلق صوت الرعد وهزيمه لنقف ونطلق بصرنا إلى السماء وقد تلاقت قلوبنا على رجفة واحدة ثمّ عدت أتقدم للأمام محاولا عدم الوقوع.
كنت أعقد حاجبي وأنا في قمّة تركيزي..
سمعي الحاد يلتقط كلّ صوت من حولي ليترجمه عقلي لصورة أسير عليها..
كنت أمدّ قدمي إلى الأمام لأتحسّس بها طريقنا، حتى أتاني صوت الريح الشديد فعلمت أن هناك فراغا أمامي، وهذا معناه أن حمّام السباحة في مواجهتي..
أمسكت يديها بقوّة وأنا أصرخ حتى تسمعني:
- حبيبتي،أمامنا منطقة فارغة، سنحبو على أيدينا وأقدامنا حتى لا تجرفنا الأمواج أو تطيح بنا الريح الشديدة، فلتبقي بجواري.
وهكذا أخذنا نسير ببطء وأنا أدعو الله ألا ننزلق، والحمد لله لم تكن المسافة بعيدة، فقد لمست يدي سور حمّام السباحة فأخذت أدور حوله ببطء شديد بسبب الرياح العاتية، ورغم أن المسافة بسيطة فإن عجزنا عن الرؤية كان عائقا هائلا أمامنا..
كانت الأمطار والأمواج تغرق جسدينا بالماء ونحن نكاد نتجمّد، إلا أنّنا قاومنا وعدت أقول لحبيبتي وبصوت عالٍ:
- تحمّلي يا حبيبتي؛ فقد هانت، لم يعد أمامنا سوى مسافة صغيرة سنعبرها لنجد أمامنا مدخل القمرات، فتشبّثي بي بقوّة..
لم تكن محتاجة إلى تحذيري؛ فقد كانت تمسك بيدي وتلتصق بي ونحن نتحرّك الهوينى لنقطع أمتارا معدودة ونصبح داخل المدخل و...
«دومممممممممممممممم»..
دوي صوت الرعد وانطلق البرق يشق السماء ومعهما خفق قلبا باسم وإيمان رعبا، خاصة باسم الذي كان يدعو ربّه أن تكون حساباته صحيحة

وأن يكون فعلا المدخل أمامه حتى يستطيع الخروج مما هو فيه..
ولم يكن وحده يناجي ربّه ويدعو، بل كان الجميع، خاصة قبطان الباخرة الذي كان في اللحظة نفسها يستمع إلى مساعده وهو يقول له:
- سيدي القبطان، لقد أغلقنا كلّ المداخل والمخارج وفصلنا التيّار عن كلّ ما ليس مفيدا لنا ووجهنا الطاقة كلّها للمحركات.
استمع له القبطان في تركيز شديد، ثمّ قال:
- على بركة الله، سوف نزيد عمل المحرّكات لنسرع أكثر حتى نستطيع البعد عن مركز العاصفة.
وفي اللحظة نفسها التي كان يمدّ فيها القبطان يده لعصا السرعة ليدفعها إلى الأمام، كانت يد باسم المرتجفة هي الأخرى تمتدّ إلى الأمام لتتلمّس الظلام الذي أمامها وقلبه يخفق في قوّة وهو يتساءل:
- ترى هل المدخل أمامنا؟
وفعلا كان أمامه!!
وفعلا لم يكن بينه وبين المدخل سوى لمسة يد!!
لمسة يد فقط..
ولكن..
قبل أن تصل أنامله إلى فتحة باب المدخل ارتجّت الباخرة في قوّة..
ارتجّت ليرتجّ معها كل من عليها وكلّ من فوقها..
ارتجّت واندفعت فجأة إلى الأمام وقد تسارعت خطاها..
«دومممممممممممممممم»..
اندفعت إلى الأمام ومعها اندفع باسم وإيمان إلى الخلف..
انزلقا فوق الماء الذي يملأ سطح الباخرة..
دفعتهما الرياح الشديدة معها..
«دومممممممممممممممم»..

شعرت إيمان بجسدها يرتطم بحافة سور حمام السباحة و...

«دومممممممممممممممممم»..

حاولت أن تتمسّك به، لولا أن حجارته الملساء منعتها فشعرت بجسدها يميل ويعاود انزلاقه بجوار سور حمام السباحة، خاصة بعد أن مالت الباخرة هي الأخرى بينما تجذب بجسدها جسد باسم الذي كان متمسّكا بيدها ويحاول أن يتشبّث بأي شيء حوله..

«دومممممممممممممممممم»..

جسد إيمان ما زال مندفعا إلى الخلف وهي تصرخ مستنجدة بباسم الذي امتلأت كلّ خلية من خلاياه بالرعب وعقله يرسم له

مسار انزلاقه هو وإيمان؛ فقد كانا يندفعان إلى سور الباخرة الخارجي..

وفي النقطة نفسها التي أخذا فيه صورة حبّهما..

تلك الصورة التي تشابك فيها قلباهما وأيديهما..

وها هما أيديهما تتشابك، لكن في اتجاه آخر..

وفجأة..

«دومممممممممممممممممم»..

شعر باسم بثقل في وزنه مرّة واحدة..

«دومممممممممممممممممم»..

إيمان أطلقت صرخة كما لم تطلقها من قبل..

«دومممممممممممممممممم»..

قلب باسم توقّف مع زيادة سرعة انزلاقه و...

ارتطمت يده بحاجز الباخرة..

تشبّث به بقوّة..

بينما يده الأخرى كانت تتشبّث بحبيبته..

حبيبته التي كانت الرياح تتلاعب بجسدها يمينا ويسارا..

تتلاعب به لأنه أصبح ملكها..
أصبح.. خارج الباخرة..
ومع صراخها.. ومع ضربات قلب باسم الخائفة..
ارتفع غضب السماء وأطلقت صرختها هي الأخرى..
ويا لها من صرخة.. مرعبة..
«دووووووووومممممممممممم»..
بكل ما بها من خوف ورعب ومع تمايل جسدها يمينا ويسارا صرخت إيمان بكل قوّتها:
- باسم.. أنا.. أنا.. خارج الباخرة..
باسم.. لا تتركني.. لا تتركني..
كانت الأمطار تنهمر عليهما وباسم يده متشبّثة على أحد عوارض سور الباخرة ويده الأخرى تمسك يد حبيبته وزوجته وهو يقول بعلو صوته:
- لن أتركِ يا حبيبتي.. لن أتركِ أبدا..
حاولي الصعود.. حاولي معي..
كان يحاول أن يجذبها مستخدما كل قوته، إلا أن الرياح الشديدة والماء المنهمر والأمواج التي تتسارع وتضرب جسدها كل حين وآخر أثقلت جسدها عليه..
- إيماااااان..
صرخ بكل لوعة وخوف ورعب..
- حاولي معي ولا تستسلمي.. اصعدي على جسدي.
كانت بالفعل تحاول، لكن لم تستطِع، كلّما صعدت قليلا تميل بها الرياح فتعود لتتراخى حتى تعبت ويئست و... استسلمت.
كانت تسمع صراخه، بل كانت تشعر بعبراته التي تتساقط عليها..
كان يصرخ باسمها ثم يصرخ طالبا النجدة لعلّ أحدا قد يسمعه وينجده..

الظلام يلفّهما من كل جانب واليأس يتسرّب إليهما..
كانت إيمان تتأرجح مع حركة الباخرة ومع الرياح التي أصبحت تتلاعب بها تماما..
سمعت نداءه..
سمعت شجنه وبكاءه..
شعرت بخوفه عليها وعجزه عن نجدتها..
شعرت بيده وهي تفقد قوتها من حول يدها وإن لم ولن يتركها..
شعرت بوعيها وهو يكاد يتلاشى..
وشعرت بـ... حبّه!!
حبّه الكبير.. حبّه الصادق.. حبّه الذي ملأ قلبها بالسعادة..
كم تتمنّى الآن فقط أن تراه..
كم تتمنّى أن تنظر إلى عينيه نظرة الوداع..
رفعت رأسها إليه واستجمعت قواها كلّها لترفع جسدها وتقترب برأسها من رأسه..
وعلى الرغم من كلّ ما حولها وما بها صاحت في أذنه:
- اتركني..
اتركني يا حبيبي وانجُ بنفسك..
اتركني وحاول أن تعود..
- لاااااااااااااا..
صرخ بها وهو يميل برأسه لتتماس وجنتاهما معا..
- لن أتركِ أبدا.. لن أتركِ يا حبيبتي..
حاولي.. أرجوكِ.. حاولي..
«دووومممممممممممممممم»..
انطلق صوت الرعد ليهز أجواء السماء ويخترق عقلها وقلبها وهي تتابع:

- لا فائدة.. إذا كنت تحبني فاتركني.. اتركني وانجُ بنفسك.
شعر بعبراتها الحارة وهي تسيل على وجنتها وهي تتابع:
- أنا كلّي فداء لك.. قلبي وحبي وحياتي كلّه فقط لك يا حبيب العمر..
- لاااااا.. لاااااااا.. لن أتركِ.. لاااا..
كاد يبكي ويصرخ طالبا النجدة ويقاوم وهن عضلاته وهي تفقد قوّتها..
عندما شعر بها..
قبلة على وجنته..
قبلة من زوجته وحبيبته وعمره كلّه، شعر بحرارتها على وجنته قبل أن..
تسقط..
جسدها تراخى ووقع لولا أنه تشبّث به بقوّة وهو يصرخ كالمجنون:
- إيمان.. إيمان.. إيماااااااااااا..
«دوممممممممممم»..
ببقية الوعي لديها كانت تستمع إلى ندائه بعدما تراخت يدها من حول
يده..
كانت تعلم أنه لن يتركها وسيضحّي بحياته معها، لكنّها تريد له البقاء.
كانت أصابع يده تتماسك أكثر بها، لكنّ أصابعها هي تراخت واستسلمت..
كانت تستسلم للموت بينما عقلها يترك المكان..
يترك الباخرة والأمواج والرياح والرعد..
يتركها وهو يرى نفقا أبيض يحف به لحظات من الحبّ والسعادة..
كانت تستمع لصوته وهو يهمس بأذنها يوما قائلا: «أحبك».
كانت تستمتع بلمسات يديه وهي تحتضن يديها..
كانت تشعر بأنامله وهو يتلمّس وجهها ليرسم ملامحها ويحفرها في
قلبه..
سبح عقلها ليوم الزفاف والسعادة..

«دووووومممممممممممم»..
- إيماااااااان.. أجيبيني.. أجيبيني يا حبيبتي..
إيماااااااان..
كان يُجنّ وهو يصرخ باسمها حتى تعب..
تعب جسده.. تعبت يده..
كان عليه أن يختار..
إمّا أن يتركها وينجو بنفسه..
وإما أن يسقط معها..
إمّا هو وإما هي..
«نحن».. هكذا قال قلبه..
قلبه الذي أحبّها وعشقها قال: نحن.
كلّ جزء من جسده.. كل خلية من خلايا جسده قالت: نحن.
نحن تعني أنا وأنتِ معا.. معا في الحياة ومعا في.. الموت..
وبعدما قهره الظلام.. ظلام العين وظلام الكون..
وبعدما قهرته قوّة الطبيعة بعد أن قاومها أشدّ مقاومة..
نطق بالشهادة..
أشهد ألا إله إلا الله.. وأشهد أن محمّدا رسول الله..
وبدأت يده التي تتمسّك بعارضة الباخرة تهون وتضعف وتتراخى.
ومن بعيد..
ومن قلب قلب العاصفة تحركت تلك الموجة..
موجة بدأت ضعيفة صغيرة تتهادى فوق البحر..
ومن ثمّ بدأت تتعاظم..
الرياح قوّتها.. الأمواج تلاحمت معها فزادتها قوة على قوتها..
كانت تتحرّك ويدفعها موج وراء موج في اتجاه الباخرة..

الباخرة التي تسارعت وكادت تخرج من نطاق العاصفة..
يد باسم حول العارضة تتراخى..
الموجة اقتربت من الباخرة تكاد تضربها..
«دووووومممممممممممم»..
الرعد يدوي وبعده التمع البرق في السماء..
قبطان الباخرة تتسع عيناه دهشة وهو يلمح تلك الموجة العالية وهي تقترب منه..
باسم أصابعه تنزلق رويدا رويدا وجسد إيمان يسحبه في اتجاه البحر..
الباخرة مالت لليمين قليلا..
انقضّت الموجة لتضرب الباخرة..
باسم تنزلق يده من على العارضة ويسحبه ثقل جسد إيمان إلى البحر و...
«دومممممممممممممم»..
شعر باسم بأمواج من الماء تحيط به وتدفعه إلى.. الخلف..
لقد حملته الموجة حملا إلى الوراء ليطلق آهة ألم عندما شعر بظهره يكاد يتحطّم وهو يصطدم بساري الباخرة ويسقط أرضا على سطح الباخرة التي مالت إلى اليسار بشدّة، ثم عادت إلى مسارها مرّة أخرى بينما باسم يصرخ ويصرخ ويصرخ..
ليس من الألم صرخاته.. ولا من الخوف والظلام..
كانت صرخاته لأنه تركها..
ترك يد حبيبته..
حبيبته التي صرخ باسمها ليعلو صراخه على صوت الرعد نفسه..
«إيماااااااااااااااان»..
كان يزحف على يديه وركبتيه وهو يتحسس سطح الباخرة المبلل ويردد اسمها صارخا بقوّة:

- إيماااااان.. إيماااااااااااان..
لم يدرِ أين هو أو إلى أين ذهب أو أين يذهب..
تداخلت الاتجاهات معه..
فقط كان يصرخ ويبكي ويدور حول نفسه يتحسس الأرض ويصرخ مناديا على حبيبته..
يصرخ ويصرخ حتى أعياه عجزه..
توقف وقد انهار جسده على سطح الباخرة ودمعه يتساقط ويختلط بماء المطر المنهمر فوقه..
كان يضرب بقبضة يده في ضعف ووهن وهو يقول:
- حبيبتي.. حبيبتي..
لقد تركتك.. قتلتك..
تركت يدكِ للموت..
أنا قتلتك.. قتلتك.. قتلتك..
إيماااااااااااان..
صرخ باسمها كما لم يصرخ من قبلُ ليقابله صوت الرعد صارخا هو الآخر:
- «دووووومممممممممممم»..
رفع باسم رأسه إلى أعلى قبل أن يتحامل على ركبتيه ليرفع يده إلى السماء وهو يقول ببطء:
- يا إلهي رحماك.. رحماك.. رحماك..
لقد فقدت أعزّ ما أملك..
فقدت حبيبتي.. آه ه ه ه ه ه.. حبيبتي.. آه ه ه ه ه يا عمري..
إيمان.. أنا.. قتلـ.. قتلـ..
اختنقت الكلمة في حلقه كما اختنقت العبرات في عينه وهو يتابع بصوت ضعيف:

- إيمان.. أين أنتِ؟ أنا لا أراكِ.. لا أرااااااكِ..
ثمّ عاد يصرخ بعنف وبقوّة تصل لعنان السماء متابعا:
- أنا.. أنا.. أنا.. أعمى.. أعمى.. أعمى.. أعمى..
«دووومممممممممممممممممم»..
انطلق الرعد ومعه اصطدمت بالباخرة تلك الموجة العالية، التي من قوّتها جعلت الباخرة تميل أكثر على جانبها الأيسر ليختلّ توازن باسم فيقع على السطح منزلقا تدفعه الرياح والموج ليشعر بنفسه وهو يصطدم بحاجز الباخرة، وقبل أن تتشبّث يده بالحاجز وجد الرياح تحمله إلى.. البحر.
كان يضرب الهواء بيديه صارخا قبل أن يشعر بجسده وهو يسقط في الماء ويغوص فيه ليضرب الماء بيديه لا إراديا فيندفع جسده إلى أعلى، وقد ساعدته سترة النجاة التي كان يرتديها ليطفو على السطح..
سطح البحر الهائج بالأمواج..
كان الموج يرتفع به ثمّ يعود ليغرقه وليس بيده أي سبيل إلى النجاة سوى غريزة الحياة التي تجعله يعاود الطفو مرّة أخرى..
وبسبب عجزه.. وبسبب مرارته لفقدانه حبيبته.. ترك نفسه..
ترك نفسه للقدر وهو ينطق بالشهادة ويستغفر ربّه و...
هذا الصوت..
صوت ضئيل استمع له بأذنه الحادة..
صوت لم يستطِع أن يميّزه وإن كان يعلو ويقترب منه..
صوت يشقّ الماء متجها إليه..
سمكة قرش؟
لماذا جال بخاطره هذا؟
ورغما عنه امتلأ بالرعب!!
الرعب الذي جعله يضرب الماء بيده مبتعدا عن هذا الصوت..

الصوت الذي اقترب أكثر وأكثر..

توقّف باسم والتفت إلى الوراء وهو يمدّ يديه إلى الأمام وكأنّه يدفع بهما خطرا ما..

شعر بشيء ما يمرّ من بين يديه ليصطدم بوجهه بقوّة فتسيل دماؤه اللزجة على وجهه ويدور عقله داخل رأسه..

وقبل أن يتدارك نفسه شعر بشيء يمسك به من الخلف بقوّة ليجذبه إليه.. و.. فقد الوعي..

فقد الوعي أو.. الحياة..

وعاد الرعد لينطلق بقوّة..

«دووووووومممممممممممممم»..

-٤-

المصير

تهادت الأمواج بنعومة وهي تداعب شاطئ مدينة نيس الفرنسية لتتعانق مع رماله الناعمة في هدوء وسكينة لبعض الوقت قبل أن تعود إلى أحضان البحر مره أخرى..

وبينما كانت طيور النورس تطلق أصواتها المرحة وهي تجوب السماء الزرقاء باسطة أجنحتها ترقب بعيونها الحادّة سطح الماء ترتقب بعضا من طعامها الشهي ويرقبها أيضا بعضا من المصطافين متأملين روعتها وجمالها..

وبعيدا عن الزحام وفوق صخرة عالية عن مستوى سطح البحر كان يجلس أحدهم فوق كرسيه المتحرّك يتابع بنظره تلك الطيور وتتحرك عيناه معها، متابعتين رشاقتها وهي تبحر في السماء وإن كانت نظرته تبدو أبعد بكثير من طيور النورس التي يتابعها..

كان صامتا لا يتحرك في جسده شيء إلا تلك الخصلات الناعمة من شعره الأسود التي تناثرت على جبينه بسبب بعض الرياح الهادئة..

كان بين الحين والآخر يرفع يده ليمسح بعض عبراته التي كانت تتهادى على وجنتيه ليعود إلى شروده ويبتلعه البحر مع ذكرياته وآلامه و...

- لويس.. ألا يكفي هذا؟

ألن تعود معي؟

أخرجه هذا الصوت الفرنسي الهامس الجميل ليخرجه من شروده وليلتفت إلى محدثته ويتأمّل وجهها الجميل وعينيها الزرقاوين اللتين جعلتاه يتذّكر البحر، فعاد ببصره ووجدانه إليه مرة أخرى..

- لويس.. الجو بارد عليك وأنت هنا منذ الصباح!!

لم يلتفت إليها أو يخرج من شروده، ما جعلها تواجهه بجسدها وتميل عليه قائلة:

- آه لو أعلم فيمَ تفكّر..

التفت بعينيه إليها ليرى دمعها وهو يتجمّع فوق بحر عينيها الأزرق وهي تتابع:

- عام كامل وأنت هكذا صامت حزين شارد..

أنا أعلم أنّك تسمعني وتفهمني، فلماذا لا تتكلّم وتخبرني ماذا بك؟

اختنق صوتها أكثر وهي تجلس على ركبتيها وتدفن وجهها فوق قدميه وتقول:

- لويس.. إنّني أحبك.. أتشعر بي فعلا؟

أمسك رأسها ليرفعه في هدوء متأملا وجهها الجميل قبل أن يمدّ أنامله ليمسح عبراتها في هدوء ومن دون أن ينطق كلمة واحدة.

ما هي إلا لحظات حتى قامت لتمسك مقبض الكرسي المتحرك لتدفعه أمامها في اتجاه ذلك المبنى الكبير الذي تزيّنه لافتة عملاقة مكتوب عليها «مستشفى جان روبورت النفسية»..

وفي داخل المبنى ومن إحدى نوافذه المطلة على البحر كان أحدهم يتابع بعينيه تلك الفتاة الرشيقة وهي تدفع حبيبها لويس إلى داخل المستشفى ليقول في غضب مكتوم:

- أنا لا أعلم سرّ تعلّق ساندرا بهذا الشاب الذي لا نعلم عنه أي شيء.. لماذا هو بالأخصّ؟

إنّه صامت مثل الحجر، وصدمته النفسية جعلته لا يتحرّك..

ما الذي يشدّها إذًا إليه؟

أجابه شخص آخر من داخل الحجرة قائلا:

- سيدي، إن السيدة ساندرا لا تنجذب إليه هو.

التفت إليه وقد عقد حاجبيه في دهشة بينما الآخر يتابع:

- إنها تنظر إلى حبيبها وخطيبها الذي توفّي والذي يتشابه كثيرا معه، حتى إنها سمته نفس الاسم «لويس» وتدعوه به دائما مع أنّنا لا نعلم له اسما..

هز رأسه بعلامة الموافقة بينما يتحرك ليجلس على كرسي مكتبه وهو يقول:

- صدقت يا جون.. هذا هو السبب، ولولا أن ابنتي خرجت بسببه من صدمتها التي كادت تودي بحياتها لكنت قد أخرجته من هنا بلا رجعة.

صمت قليلا وهو يشعل إحدى سجائره الغليظة ذات الرائحة النفاذة ليقول في اهتمام بينما يتصاعد الدخان من حوله:

- جون، ألم يتعرّف عليه أحد ممن أتوا إلينا بعد نشر صورته؟
ظهر الغضب على وجه مساعده جون وهو يقول:
- إنهم محتالون..
كلّهم يدّعون معرفته ويقولون قصصا واهية عنه حتى يأخذوا المكافأة، وكلّها قصص ملفّقة ليست لها أي صحّة.. نصابون ومحتا...
قاطعته تلك الطرقات على باب المكتب ليلتفت إلى سكرتيرة المكتب وهي تقول:
- عفوا مسيو جان.. هناك من يقول إن عنده معلومات عن مسيو لويس، هل أسمح له بالدخول؟
- هذا أقّاك آخر مسيو جان..
قالها المساعد قبل أن يلتفت إلى سكرتيرة مسيو جان ليقول:
- قولي له لا نريد شيئا.. لقد علمنا من...
- أدخليه.
قالها مسيو جان مقاطعا مساعده، ثمّ تابع وهو ينظر إليه:
- جون.. لن نخسر شيئا إذا سمعناه.
صمت مساعده وملامح الغضب على وجهه، التي ازدادت عن طريق زفرة حارة أطلقها عندما شاهد هذا الشخص الذي دلف إلى الحجرة..
كبير في السن هو، لحيته غير مشّذبة، ملابسه مزرية الشكل، ناهيك عن رائحته التي كلّها تبغ محروق..
حتى إن مسيو جان تمنّى لو استمع إلى مساعده ولم يدخله فقام من مكانه لينظر إلى البحر من خلال النافذة ويستمع لهذا الصوت الأجش القوي وهو يقول:
- أين النقود؟
قال المساعد في غضب:

- هل أنت تحدّثت أولا حتى تطلب النقود أيها الـ...
قطع كلمته عندما أشار إليه مسيو جان ليعطيه وكأنّه يريد إخراجه بسرعة، فأخرج مبلغا من المال قذفه إليه ليتلقاه الآخر في شهوة عجيبة ويقول بعدما مسح فمه بساعده:
- منذ عام كامل كانت تلك الأمواج التي تتهادى على شاطئ مدينتنا مثل الوحش الكاسر في أقوى عاصفة شهدتها فرنسا..
قد تكونان من هنا، رأيتماها بسيطة، أما نحن فكنا هناك على سفينتنا الصغيرة وفي قلب العاصفة، حيث الأمواج كانت أعلى من مشفاكم هذا..
وعندما شعرت بعظم العاصفة، خاصة بعد تحطّم بوصلتنا ورادارنا قررت الرجوع حتى لا نضيع في البحر..
وهنا مرّت بجوارنا تلك الباخرة العملاقة وكانت فرصتي هي أن أتبعها حتى توصلني إلى الميناء والأكيد أنها ذاهبة إليه..
أخذ يلتقط أنفاسه ويبتلع لعابه ويتابع:
- معظم الإنارة على هذه الباخرة كانت مطفأة، لكنّنا تابعناها، وعلى تلك الأنوار الخافتة وجدت أحد بحارتي يشير إلى شيء في الماء ويقول لي بعلو صوته:
- غريق.. غريق في البحر.
سلّطت كشّافي عليه ونحن نقترب منه، إلا أنّني شاهدّته وهو ينظر في اتجاهنا برعب ثمّ يسبح في الاتجاه العكسي وكأنّه لم يرَنا..
اقتربنا منه أكثر ومددت عصاي المنتهية بخطاف حتى أنتشله إلا أنها اصطدمت برأسه بقوّة وقبل أن نفقده ويغرق استطعنا انتشاله لنضعه معنا..
التفت إليه مسيو جان وقد علا الاهتمام ملامحه بينما هو يتابع وعلى وجهه ارتسمت الدهشة:

- الغريب يا سيدي عندما أفاق من غيبوبته أخذ ينظر لنا بدهشة شديدة ويحرّك رأسه يمينا ويسارا..

يضع يده أمام عينيه ليحركها ويغمض عينيه ويفتحهما وينظر لها مرّة أخرى.. ثمّ قام ليجري إلى البحر وهو يصرخ بكلمة ما ربما «مان» أو «آمان» لا أعلم..

لكن من المؤكّد أنه جنّ..

لقد أراد أن يقذف بنفسه إلى البحر مرّة أخرى..

وفجأة وجدتّه يبكي مثل الأطفال ثمّ سقط فاقدا للوعي مرّة أخرى..

وكان حظّنا أنّنا رسونا أمام مشفاكم فحملته لأضعه بجوار الباب ورحلت.

عمّ السكون لحظات والجميع ينظرون إلى هذا الشيخ الكبير الذي قال بصوته الخشن:

- هذا كلّ شيء..

عاد الصمت يلف المكان قبل أن يقول مسيو جان:

- ولماذا تركته وهربت؟

ابتسم الشيخ لتظهر أسنانه الصفراء غير المتساوية وهو يقول:

- المسئولية مسيو جان..

من المؤكّد ستكون هناك أسئلة عنه ومن الممكن تدخّل الشرطة؛ لذلك يكفي إنقاذي له وتركت الباقي لكم..

تركهما ليغادر المكان قبل أن يستوقفه مسيو جان قائلا:

- هل رأيت اسم الباخرة التي كنت ترافقها فقد يكون قد أتى منها؟

هز كتفيه بلا اهتمام قائلا:

- لا.. لم أهتمّ بذلك، لكنّها باخرة ضخمة بها حوالي ٣ أدوار وتحمل رسما كبيرا لتلك المثلثات الثلاثة بجوار وجه لا أعرفه..

فتح الباب ليتابع بصوت عالٍ:

- أعتقد أن المثلثات الثلاثة هذه هي الأهرام المصرية.
قالها وهو يغلق الباب بينما مسيو جان يعود لينظر إلى البحر مرّة أخرى من خلال نافذة حجرته ومساعده جون يقول في شكّ:
- هل.. هل تصدّقه مسيو جان؟
ولم يأتِه الجواب..
فقد كان مسيو جان يفكّر في حديث الرجل ويشعر أنه وجد أول الخيط..
أول الخيط الّذي سيدلّه على مصير هذا المجهول..
المجهول الذي يسميه لويس..
والذي نعرفه نحن باسم «باسم»..

* * *

- هل علمت من هو يا أبي؟
هل علمت؟ أخبرني..
هكذا قالت ساندرا في لهفة شديدة لوالدها مسيو جان الذي قال:
- اهدئي يا حبيبتي.. لقد علمت فعلا كيف أتى إلى هنا، لكن لم نعرف إلى الآن حقيقته بالضبط..
جلست بجواره وهي تلتقط أنفاسها بسرعة بينما هو يقصّ عليها حديث الرجل..
حتى انتهى من حديثه فقامت إلى النافذة لتلقي نظرة على لويس الجالس أسفل شجرة وافرة وهو في شرود وحزن تامين كعادته دائما فعقدت حاجبيها في اهتمام وتفكير ثم قالت:
- الشرق.. إنه من الشرق.. عربيّ.. نعم هو عربيّ..
التفت لها والدها قائلا:
- وكيف علمتِ هذا؟
التفتت إليه وهي تقول:
- سلوكه يا أبي.. تعامله معي يدل على عظم أخلاقه و...
قاطعتها طرقات على الباب ليدخل مساعد د. جان ليسلمه ورقة ما ففتحها بينما ساندرا تختلس النظر إليها وهو يقول:
- باخرتان!!
نفرتاري وإخناتون هما من وصلتا إلى ميناء نيس في هذا التوقيت الذي قاله الرجل، وكلتاهما في حالة يرثى لها..
أخذت ساندرا تردّد الاسم الأخير قبل أن تقول:
- سأذهب بنفسي للسؤال عن الباخرة إخناتون و...
قاطعها أبوها قائلا:
- لماذا ساندرا؟ دعي المساعد جون يذهب.

قالت في تردّد:
- لا أدري يا أبي، أشعر أنّني سأعلم حقيقته عن طريق هذه الباخرة؛ لذلك أريد الذهاب بنفسي.
أخذت صورة حديثة للويس وانطلقت إلى عنوان الباخرة إخناتون وقلبها ينبض بعنف خوفا من أي مفاجأة قد تحدث لها..
إنّها تحبّه فعلا..
قد تكون في البداية رأت فيه حبيبها السابق لويس ولذلك انجذبت إليه بل وسمته باسمه، لكن جلوسها معه وسلوكه في التعامل معها و... نظراته..
نظراته التي تمتلئ بالحزن والألم و.. الحب..
تلك النظرة الحالمة التي تأخذك معها إلى آفاق من الأحلام والحب!!
نظراته التي تحكي حكايته على الرغم من صمته..
إنّها تحبّه هو وليس أحدا آخر..
ومع صعودها سلم الشركة التي تنتمي إليها الباخرة كانت دقّات قلبها تتزايد أكثر وأكثر..
- هل أستطيع خدمتك؟
بابتسامة مرحة أزالت بعض توترها قالتها السكرتيرة لها لتقول:
- أردّت السؤال عن باخرة لكم اسمها إخناتون..
هزت السكرتيرة رأسها بعلامة الفهم وهي تقول:
- نعم.. إنّها باخرة رائعة وقريبا ستنطلق في رحلاتها السياحية..
تلعثمت قليلا وهي تقول:
- كنت أريد بعض المعلومات عن رحلتها السابقة من عام ونصف العام تقريبا.
ظهرت بعض الدهشة على وجه السكرتيرة وهي تقول:

- آه.. الرحلة السابقة.. إن المعلومات عند مسيو نيرو؛ فقد كان مساعد القبطان على تلك الرحلة وهو أيضا ابن مالك الباخرة..

- هل من الممكن مقابلته؟

- للأسف هو ليس موجودا الآن، لكن لو أردتِه ستجدينه في نادي «شادويل».

شكرتها ساندرا ثمّ انطلقت إلى النادي في لهفة وقلق..

حاولت أن تعود إلى المشفى، لكن رغبتها الشديدة في المعرفة جعلتها تذهب إلى النادي..

وما إن دلفت إلى النادي حتى سألت عن مسيو «نيرو» ابن رجل الأعمال الكبير مسيو «ميريديان» فأشار الحارس إلى مكان جلوسه؛ حيث كان يجلس مع شاب وفتاة في عمرها تقريبا فانطلقت إليه وهي تحاول أن تهدئ من لهفتها وقلقها..

- مسيو ميريديان..

التفت لها الرجل ليتأملها قليلا ثمّ أجاب:

- نعم..

التفتت لها أنظار الشاب والفتاة بينما تابعت هي:

- كنت أريد السؤال عن مسيو «نيرو» فقد علمت أنه معك اليوم..

ابتسم الشاب وظهرت بعض الغيرة على وجه الفتاة وهو يقول:

- أنا نيرو.. هل أخدمك بشيء؟

قالت بسرعة:

- أردت سؤالك عن شيء ما يتعلّق برحلتك الأخيرة.

ابتسم وهو يدعوها إلى الجلوس قائلا:

- أي رحلة تقصدين؟ فرحلاتي كثيرة..

قالت في تردّد:

- هي رحلة ليست بالقريبة بل من عام ونصف العام تقريبا، رحلة الباخرة إخناتون.

اختفت ابتسامته فجأة وظهر بعض القلق على وجهه وهو يقول مختلسا النظر إلى الفتاة التي بجواره:

- إخناتون.. ما... ماذا عنها؟

أخذت نفسا عميقا لتهدّئ بعض انفعالاتها وهي تقول:

- لقد علمت أنّك كنت على متن الباخرة في وقت مواجهتها للعاصفة الشديدة، وقد أردت سؤالك عن شخص ما قد تكون رأيته على سطحها في وقت الرحلة.

ظهر الغضب على وجهه دون مبرّر وهو يقول بينما يختلس النظر في قلق إلى الفتاة بجواره، التي كانت مصغية لما يُقال باهتمام تام:

- إن الباخرة كان بها الكثير من النزلاء وأنا لا أعلمهم جميعا.

مشاعرها ولهفتها الشديدة منعتها من رؤية غضبه وهي تخرج صورة لويس لتقدمها له قائلة:

- هل رأيت هذا الشخص على متنها؟

أخذ الصورة بينما الفتاة بجواره تتطلّع إليها معه وقد ظهر عليه القلق وهو ينظر للفتاة بأكثر مما ينظر إلى الصورة وهو يقول:

- لا.. لم أرَه عليها.. ربّما كان على الباخرة ولكنّي لم أرَه.

ظهرت خيبة الأمل على وجه ساندرا؛ فقد كانت تشعر فعلا أنها ستعلم كلّ شيء عن لويس فعادت تقول في رجاء:

- أرجوك مسيو نيرو تأمّلها قليلا فقد تتذكـ...

- لا لم أرَه..

قاطعها في لهجة صارمة فاجأت الجميع، حتى إنه تابع متأسفا:

- آسف سيدتي.. لكنّي فعلا لا أعلم.

قالها في قلق وهو ينظر إلى الفتاة بجواره، حتى إن ساندرا أخذت تنظر لها علها قد تعلم شيئا، فقالت لها وهي تنظر إلى الصورة:

- آسفة سيدتي، فلم أكن على الباخرة وقتها و...

- لويزا.. ألا تأخذين نيرو لتتريّضا قليلا؟

قالها مسيو ميريديان بفرنسيّته الهادئة مقاطعا إيّاها، إلا أنها قالت وهي ما زالت تنظر إلى الصورة في لهفة عجيبة:

- لكن يا عمّاه أريد البقاء معكما!!

ابتسم لها قائلا:

- لويزا، أنت تعلمين أن خطبتك قريبة، ألا تريدين التحدّث مع نيرو وحدكما قليلا؟

ظهر الخجل على وجهها، إلا أن نيرو قام في عصبية ليجذبها من يدها قائلا:

- هيّا لويزا.

ثمّ التفت إلى ساندرا متابعا:

- عفوا سيدتي..

قالها وانطلق بعيدا لتأخذ ساندرا صورة لويس وتضعها في حقيبتها، بينما مسيو ميريديان يقول:

- من هذا الشخص التي أنتِ متلهّفة عليه هكذا؟

أخذت تحكي له كل ما عندها قد تجد عنده الأمل الأخير، وما إن انتهت حتى صمتت قليلا ثمّ تابعت:

- وقد أخذني الأمل أن أجد عندكم بعضا من الصور للأشخاص الذين كانوا على سطح الباخرة أو للذين فُقدوا منها في أثناء العاصفة.

التفت لها قائلا:

- يا سيدتي لا أحد فُقد في أثناء العاصفة، فكما علمت كان القبطان يغلق

كل الأبواب والممرات، ومن فُقد هو من هرب أو تأخّر في العودة في أثناء توقّف الباخرة في الموانئ والمدن، وللأسف بعد تلك العاصفة فقدنا الكثير من الأوراق، حتى الركاب أنفسهم الكثير منهم فقد أوراقه، وقد عانينا الكثير لكي نعيدهم إلى مدنهم..

صمت قليلا وهو يرى وجهها وقد علاه العبوس ثم تابع:

- عذرا سيّدتي، لكن حكاية البحار هذا هي حكاية غير صادقة بالمرّة.. فهل من المعقول أن ينجو شخص وقع في بحر هائج في عاصفة شديدة كهذه؟

صمت قليلا وهو يرى عبراتها تنسال على وجنتيها فربت عليها في حنين قائلا:

- يا ابنتي، لِمَ تشغلين نفسك بمن هو؟

إن كنتِ تحبينه كما هو واضح لي فدعكِ ممن هو أو من يكون!!

صدقيني هذا أفضل لكِ..

شكرته وهي تغادر المكان وتفكّر في كلماته هذه وتتساءل:

- أحقا من الأفضل لها ألا تعلم من هو؟

لكن لويس.. أليس له الحق أن يعلم من هو؟

عادت الحيرة تعلو وجهها وهي تكلّم سكرتير والدها الذي ذهب ليجمع المعلومات عن الباخرة الأخرى، لكن لم تجد عنده شيئا.. الحديث نفسه حدث معه..

لا أحد يعلم هل كان موجودا أم لا..

لكن قلبها يخبرها أن رواية البحار حقيقية..

أخرجت صورة لويس لتنظر إليه وتتساءل:

- ترى من أنت يا لويس؟

وعادت عبراتها تسيل على وجنتيها حائرة عاجزة قلقة كتلك الحيرة والقلق اللذين ارتسما على وجه نيرو وهو يسير مع لويزا التي كانت تقول له:

- أتعلم يا نيرو ومع أنّني متأكدة أنّني لم أرَ هذا الشخص من قبل إلا أنني أشعر أنّني أعرفه.. كيف؟ ومتى؟ لا أعلم.. وهذا فعلا يحيّرني.. هل أنت متأكد أنّك لم ترَه على الباخرة؟

نيرو.. هل تسمعني؟

كان يسمعها فعلا، لكن لم تحصل منه على إجابة، فقط حيرة وقلق ارتسما على وجهه كما ارتسم على وجوه الجميع وهم يتساءلون:

- ترى ماذا يخفي المستقبل؟

بل ماذا يخفي الماضي من قلق وحيرة؟

ماضي لويس..

وقلق وحيرة «نيرو» ولويزا..

الشركة الفرنسية للرحلات البحرية

نحن نقدم خالص تعازينا ومواساتنا لأسر المفقودين والمصابين في رحلتنا السابقة على ظهر الباخرة «إخناتون».. التي قد تم إصلاحها وعودتها إلى العمل.

وها نحن سننطلق إلى بلاد الشرق والسحر والجمال..

لذلك نحن ندعو جميع من كانوا عليها في هذا الوقت الصعب ومعهم كل من يريد قضاء وقت ممتع ليشاركونا الرحلة المقبلة وليفتتحوا معنا معرض صور العاصفة ونستمع معهم إلى مغامراتهم عند مواجهة غضب الطبيعة..

نحن نعدكم برحلة لن تنسوها أبدا..

اشتركوا الآن..

* * *

طوت ساندرا الصحيفة بعدما قرأت هذا الخبر لتتطلّع إلى لويس الذي كانت ملامحه تحمل من القلق والألم الكثير، وهذا ما جعلها تتأكد أن هذه الباخرة هي التي تحمل سرّه..

- لويس.. إن ما أراه على وجهك يؤكد إحساسي بأنّ هذا المركب يحمل كل ما تريد أن تخفيه عنّي.

أدار لويس وجهه عنها وقد بدأ جسده ينتفض من قوّة ما يشعر به وما يمرّ خلال عقله من ذكرى أليمة..

- لذلك سنكون عليها..

التفت إليها في حدّة وعيناه تحملان رقاقات من الدمع الحبيس.. كان يحاول أن ينطق ويقول لا.. بل يصرخ بها.. إلا أن فكيّه تحركا من دون صوت سوى صوت مخنوق ارتدّ على صدره فأخذ يلهث وكأن الهواء امتنع عن الدخول..

- أعلم أنّك تتألم، لكن من الألم تأتي النجاة!!

صمتت قليلا لتزيل دمعها الذي تسرّب من عينيها الجميلتين وهي تتابع:

- أشعر بك حبيبي.. وأعلم كم تعاني، لكن!!

لكن.. لا بد من الذهاب حتى ترجع لي أو...

صمتت لحظات لتتابع بعدها بصوت دامع حزين:

- أو.. أفقدك.. أفقدك إلى الأبد.

قالتها لتعدو بعدها وصدرها يجيش بالبكاء ويكاد يختنق به مثل صدر لويس ومثل صدر نيرو الذي كان يعلو لهاثه وهو يدلف إلى مكتب أبيه بقوّة ويلوّح بجريدة ما قائلا:

- أبي.. أبي.. هل.. هل قرأت هذا الخبر؟

أجابه مسيو ميريديان وهو يتطلّع إلى الجريدة نفسها قائلا:

- نعم.. نعم يا ولدي.

ارتمى نيرو بجسده على أقرب مقعد وقال في انهيار تام وهو يحلّ رباط عنقه الذي كاد يخنقه:

- لويزا.. لويزا يا أبي هي التي كتبت الخبر وهي التي تتابع الباخرة ولا تريد لأحد متابعتها سواها.

اقترب منه والده ليربت على كتفيه قائلا:

- اهدأ يا ولدي ولا تخَف.

لكن نيرو تابع في غضب:

- إنها تثير الماضي يا أبي، وأسئلتها عن الباخرة لا تنتهي، حتى إنها رفضت إتمام الزواج إلا على متن هذه الباخرة اللعينة.

وضع وجهه بين كفيه وقد انهار تماما وتهدّج صوته وهو يقول:

- إنّني أحبّها.. أحبّها من كلّ قلبي ولا أريد أن أفقدها..

أرجوك يا أبي افعل شيئا.. أرجوك.

أخذ والده يهدّئ من روعه وهو يقول:

- سأفعل يا ولدي.. سأفعل!!

فقط اهدأ أنت.. دع الأمر لي.

كان يقولها وقلبه يخبره أن الأمور لن تعود كما الماضي..

خبرته الكبيرة بالحياة كانت تجعله يقول هذا..

إن ساندرا قد فتحت الجرح ولن ينغلق أبدا..

إن القدر يريد أن يعيد الأمور إلى نصابها..

عاد بنظره إلى ولده الذي ما زال يجيش بالبكاء ليربت على كتفيه وهو يقول:

- لا تقلق يا ولدي و...

ودع القدر يأخذ مجراه، ولندعُ الله ألا يحدث ما نخشاه..

والتقت القلوب جميعها على كلمة واحدة: القدر..

القدر الذي سيبرّد عقل وحيرة وجنون لويزا بهذه الباخرة وتلك الأحلام التي تراودها..

القدر الذي سيزيل ألم وقلق ورعب لويس الشديد بهذه الباخرة..

القدر الذي سيهدّئ من نار الألم والفراق التي تدوي في رأس نيرو..

وارتسمت صورة الباخرة إخناتون أمام الجميع..

والجميع يسأل:

- تُرى ماذا يخفي القدر لنا؟

-٥-

أنا لست أعمي

كان الزحام شديدا على ميناء نيس الدولي؛ حيث احتشد الركاب وأقاربهم أمام الباخرة إخناتون التي ستنطلق بعد قليل في أول رحلة لها بعد عام ونصف العام من رحلتها الأخيرة التي واجهت فيها أعنف العواصف البحرية..

وفي برج الباخرة، حيث جلس القبطان وبجواره مساعده نيرو ومعهما مالك الباخرة مسيو ميريديان في لقاء مع القناة الفرنسية «ART».. كان العمال والركاب والمودّعون في حركة دائمة أمام الباخرة تعلوهم سماء صافية وطيور النورس البيضاء تحلّق فوقهم في أمان تام سابحة في رشاقة تُحسد عليها.. حتى إن أحدهم هبط على قدم أحد الركاب الذي كان جالسا فوق كرسيه المتحرك والذي كان ينظر للطائر في شرود تام ونظرات ليست تراه في الواقع بل هي في مكان آخر..

حتى الطائر أخذ يتقافز على قدميه قد يراه أو يلتفت إليه حتى سئم الحال ففرد جناحيه محلّقا إلى أقرانه يسبح معهم..

- هل هي فعلا؟

عقد مسيو ميريديان حاجبيه وهو ينظر من نافذة القطبان إلى فتاة جميلة أخذت تدفع أمامها بكرسي متحرك ليعود قائلا في نفسه:

- هي.. هي بالتأكيد.

أخذ يتابعها بعينيه حتى دلفت إلى مصعد الركاب وهو يتمتم:

- ساندرا.. ترى ماذا تفعلين هنا؟

التفت لينظر إلى ولده الذي أخذه الحوار مع المذيعة ليشعر بخفقان قلبه واضطرابه وهو يقول لنفسه:

- قلبي يحدثني أن هذه الرحلة لن تمر بسلام.

وفي الوقت نفسه كانت ساندرا تدفع بـ«لويس» داخل حجرته الذي كان يتحرك ويتمايل فوق كرسيه قلقا واضطرابا..

مشاهدته للباخرة وللماء كان يُخرج من أعماق أعماق قلبه الكثير والكثير من الذكريات المؤلمة والأحزان الا...

- أعلم أنّك متعب وقلق.

التفت إليها وملامح وجهه توحي بقوّة الصراع الذي بداخله..

- لقد قال لي طبيبك النفسي إنه لا بد من مواجهة مخاوفك لتشفى.

أنت تعلم أنّك لست بقعيد أو لا تستطيع الكلام، فقط ما مررت به هو الذي جعلك هكذا.. ولترجع كما كنت لا بد أن تواجه..

لذلك أنا أشعر أنني على الطريق الصحيح.. جئت بك هنا لتعلم و...

صمتت قليلا وهي تتابع ملامح وجهه الحزينة ثمّ قالت:

- ولكي أعلم أنا أيضا حبّي لـ...

- مرحبا بكم على متن الباخرة إخناتون.. السـ...

قاطعها صوت القبطان من خلال الإذاعة الداخلية لتضغط على كاتم الصوت وتتابع بصوت متهدّج:

- لويس.. أريد أن أعلم، أهناك أمل تحبّني مثلما أحبك؟

أدار وجهه عنها وقد ظهر على جسده الإعياء والإرهاق فضغطت على زرّ تشغيل الصوت وهي تقول:

- سأعلم.. في هذه الرحلة سوف أعلم..

تركته لتغادر الكابينة بينما صوت القبطان يتابع حديثه:

- الفنان المصري المعروف الذي سوف يحدثنا في افتتاح الأتيليه الفنّي لصور العاصفة عن لحظات جرأته وهو على سطح الباخرة ويأخذ صوره.. كما سيفاجئنا بتحفته الفنّية التي..»..

كان يستمع لكلمات القبطان وعقله يأخذه إلى ذكرياته التي لم ولن ينساها..

حتى إن يديه كانتا تنقبضان بشدّة وهو يضرب بهما على مسند مقعده ويكاد يحطّمه أو.. يحطّمهما..

أخذته الذكريات حتى غلبه التعب والإرهاق وأخذه النوم وهو في مكانه.. ويبدو أنه كان مرهقا جدا، حتى إنه لم يشعر بـ«ساندرا» التي نقلته على سريره والتي مرّت عليه أكثر من مرّة حتى سمع صوتها وهي تهزّه في قوّة قائلة:

- لويس.. استيقظ!!

لويس.. لقد مرّ يوم بأكمله وأنت نائم!!

لويس.. إن ذلك الأتيليه سوف يفتتحونه بعد قليل، هيّا انهض.

أخذت تساعده حتى قام من مكانه وأجلسته على مقعده ووضعت له غداءه وكوبا من الشاي الدافئ وتركته قائلة:

- سأذهب لأغيّر ملابسي وسأعود إليك لنذهب للأتيليه.

هز رأسه يمينا ويسارا بعلامة الرفض، إلا أنها تابعت:
- لويس.. أرجوك.. واجه ما أنت فيه حتى تستطيع العودة كما كنت..
ثم جلست أمامه وأمسكت بكلتا يديه وهي تقول:
- لويس.. اعلم أنّني سأقف بجوارك مهما حدث ولن أتركك أبدا..
حتّى.. حتّى..
تلعثمت في كلماتها ثمّ تابعت:
- حتى لو لم أكن لك.
قالتها ثمّ غادرت الكابينة ولويس يتابعها بعينيه الشاردتين..
ولم يشعر بالوقت وهو يمضي حتى وجدها تدلف إلى الكابينة قائلة:
- هيّا بنا، هل انتهيت من طعا...
صمتت وهي تشاهد طعامه كما هو، حتى كوب الشاي لم يقترب منه..
فقالت بصوت حزين:
- لا عليك يا لويس.. هذه مرحلة وستنتهي.. هيّا بنا.
توجها إلى القاعة التي كانت مملوءة بالسيّاح من جميع الجنسيات..
بعضهم يجلس على مقعده وبعضهم يقف متأملا تلك الصور التي تزين القاعة..
صور تُظهر عنف العاصفة ومدى قوّتها ومدى خوف الركاب الذي يظهر على عيونهم..
عام ونصف العام مضت..
انطلق صوت القبطان ليجذب انتباه الحاضرين فالتفت إليه الجميع وهو يتابع:
- عام ونصف العام مضت على تلك العاصفة الشديدة التي واجهتها تلك الباخرة. عاصفة تكاتف فيها الجميع حتى استطاعوا المرور منها..
كان الركاب داخل كبائنهم يملؤهم الرعب كلما برق البرق أو صمّ الرعد

آذانهم ولم يكن سوى البحارة هم الذين عانوا ويلات الأمواج المرعبة وهدير الأمطار فوق رءوسهم فوق سطح الباخرة ولكن..

صمت لحظات والعيون تتطلّع إليه في ترقّب ثمّ تابع بينما الأضواء تخفت تدريجيا داخل القاعة ولم تبقَ سوى دائرة من الضوء مسلطة على القبطان:

- كنت أعتقد هذا..

كنت أعتقد أن البحارة فقط هم من كانوا فوق السطح، لكن علمت أن هناك عينا أخرى التقطت كلّ ما واجهناه من ليل أسود بهيم وأمواج عاتية وصراخ الخوف والألم..

وصاحب هذه العيون الجريئة هو..

(وأشار بيده في حركة مسرحية لتنتقل هالة الضوء إلى هذا الشاب وهو يتابع):

- المصوّر والفنّان المصري «هيثم عبد الحليم»..

دوت القاعة بالتصفيق تحية لهذا الفنان المغامر الذي بادرهم بالتحية وهو يدير عينيه بين الحضور لتمرا بسرعة على هذا القعيد على كرسيه المتحرّك الذي تجمّعت بعض قطرات من العبرات الحارة بين جفنيه وهو يتابع المصور بحنين ظاهر، والذي قال:

- شكرا لكم جميعا..

لقد شاهدتم بعض الصور المعلّقة على حوائط القاعة، لكن هذه الصور لا تعتبر شيئا بجانب ما سترونه الآن من عنف وقوّة ورهبة عاصفة بحرية..

سكت لحظات قبل أن يتابع بصوت حزين:

- وبعدها سأقدم لكم صورة خاصة جدا، صورة لأوفى وأعز صديق لي مع زوجته..

شاهد الحضور تلك العبرات التي فرّت من عينيه وهو يتابع ببطء:

- رحمهما الله.

صمت الجميع مواساة إليه على الرغم من خفقان قلب أحدهم الذي علا وهو يحرّك فكّيه بهمهمات غير مفهومة بينما أضيئت الشاشة الكبيرة خلف المصوّر..

وبدأت الصور الفوتوغرافية شديدة الوضوح والإتقان تتوالى عليها..

صور للموج في قوّته وعنفوانه وهو يضرب بجانب الباخرة أو يعلوها وينقضّ عليها كنسر هائل يمسك فريسته في سهولة..

صور السماء الملبّدة بالغيوم..

صور الألم المرتسم على وجوه الركاب..

صور الدمع والخوف على وجوه أطفال بريئة..

كان الحضور يتابعون في شغف شديد، منهم من ينظر بانبهار لتلك الصور فائقة الروعة ومنهم من ينظر ويتذكّر ما حدث له ومنهم من يملأ الخوف قلبه من هول ما يرى من غضب الطبيعة.. ومنهم من كانت كل صوره تعتصر وتفجّر جزءا من خلايا قلبه..

توقفت الصور عن العرض لتدوي القاعة كلّها بتصفيق حاد لروعة ما شاهدوه بينما عيونهم تتابع في اهتمام تلك المنصّة الخشبية المتحركة التي يعلوها شيء ما مختفٍ أسفل قطعة من القماش الحريري أسود اللون، بينما يدفعها بعض العاملين حتى استقرّت بجوار المصوّر الذي أخذ يتأملها في شرود وحزن تامين حتى هدأ التصفيق وجلس الحضور..

عندها قال:

- ما رأيتموه كان جزءا فقط من الرحلة..

جزء من الرعب والألم حدث بسبب العاصفة ولكن ما قبلها..

صمت قليلا وهو يتلمّس تلك الرقاقة الحريرية السوداء ويتابع:

- سعادة وحبّ..

هذا ما كنّا عليه قبل العاصفة..
هذه صورة ستريكم كم كانت السعادة ترفرف على الجميع..
تهدّج صوته قليلا وهو يتابع:
- صورة صديقي وزوجته..
صورة تجمع كلّ معاني الحب والدفء والسعادة..
صورة لأحبّ زوجين وأحبّ عاشقين..
صورة لهما وهما ينهلان من البحر الأزرق، أمامهما الدفء والحنان..
سقطت دمعة حارة من على وجهه وهو يتابع بحزن:
- صورة لهما قبل أن تأخذهما العاصفة معها..
قبل أن تجذبهما الأمواج الهادرة ليبتلعهما البحر الأسود العنيف..
نهنه وارتجف صوته وقد غادرت دموعه محبسها وهو يتابع:
- كنت آخذ صوري للعاصفة على سطح الباخرة بالقرب من مدخل القمرات عندما سمعت صوت الاستغاثة..
كنت أعتقد أنه صوت الريح أو يهيّأ إليَّ، لكنّي تحرّكت بعدستي المقرّبة لأفاجأ بصديقي..
صديقي الوحيد يمسك بيد واحدة بأحد عوارض حاجز الباخرة بينما يده الأخرى تمسكّ بأحبّ إنسانة في الوجود إلى قلبه..
انطلقت إليهما وأنا أصرخ باسمه وأصرخ بالنجدة لولا..
صمت قليلا وقد غلبه البكاء، حتى إن الحضور بكوا معه تعاطفا مع ما يقول وهو يتلمّس بيده مرّة أخرى تلك الرقاقة الحريرية التي تخفي صورة صديقه وزوجته حتى هدأ قليلا ثمّ تابع:
- موجة.. موجة مثل العملاق..
عملاق من الماء هجم عليَّ ليحملني معه ولأجد نفسي أقع في مدخل القمرات و.. يغمي عليّ..

عندما أفقت صعدت بسرعة إلى سطح الباخرة لأبحث عن صديقي..
صديقي الذي يتمسّك بزوجته عند المكان نفسه الذي أخذت فيه هذه الصورة..
المكان نفسه الذي شاهد صورة حبّهما هو المكان نفسه الذي.. الذي..
أخذ ينهنه في قوّة وقد غلبه البكاء وهو يتابع بصوت مليء بالدموع:
- ماتا فيه..
قالها ليبكي الحضور متأثرين بقصّته..
بكوا بدموع تساقطت من أعينهم، لكن ليس كمثل هذا الشخص المقعد..
هذا الشخص الذي كان دمعه يهدر من دون صوت..
الذي كان قلبه يدمى بخناجر تقطّعه مع كلّ كلمة يتكلّم بها..
كان يريد أن يصرخ مناديا بأعلى صوته..
ليس على صديقه ينادي..
وليس باسمه الذي ما زال يحيا بينهم ينادي..
بل ينادي باسم زوجته وحبيبته وعمره بأكمله..
يصرخ مناديا وهو يتمنّى طوال الوقت أن يكون معها..
مع حبيبته.. إيمان..
إيمان، ذلك الاسم الذي أخذ يتردّد بداخله بل وتتحرّك شفتاه به من دون صوت..
وبينما عيناه تراقبان صديقه وهو يزيل بيده تلك الرقاقة الحريرية لتظهر أسفلها صورته مع حبيبته..
صورة جذبت إليها الأنظار..
وسقطت معها القلوب..
كلّ القلوب..
ما إن أسقط هيثم تلك الرقاقة السوداء عن تلك الصورة حتى

سقط معها قلوب الكثير..
قلب باسم الذي يرى زوجته وحبيبته لأوّل مرّة..
وقلب ساندرا..
ساندرا التي اعتلى وجهها الدهشة وهي ترى الصورة وتتعرّف فيها على وجه الزوج..
الزوج الذي بكت مع الجميع من فترة قصيرة على موته بينما هو يجلس بجوارها..
يجلس مستمعا إلى آهات الإعجاب التي انطلقت من أفواه كلّ الحضور وهم يرون تلك الصورة المجسّمة التي هي أقرب إلى النحت منها إلى الصورة العادية، حتى إن أدقّ تفاصيل الوجه تظهر فيها..
صورة خطفت أبصار كلّ من في القاعة إلا هو.. باسم.
لقد خطفت بصره وقلبه وجسده، بل كلّ كيانه..
كيانه الذي انجذب إلى حبيبته التي لأوّل مرّة يراها بعينيه.. صورة جعلته ينطق باسم حبيبته.. «إيمان»..
نطقها وخرجت من قلبه قبل أن تخرج من بين شفتيه..
خرجت لتسمعها ساندرا الواقفة بجواره والتي كانت تتنقل بعينيها بينه وبين الصورة في دهشة بالغة وقد علمت ما حدث له..
وبينما كانت تبكي بدموع الألم والحزن كان باسم يتحرّك إلى حبيبته..
لم يكن يشعر بشيء.. فقط تعلّق بصره بصورة زوجته وتحرّك إليها..
تحرك وكيانه كلّه لا يرى ولا يسمع سوى حبيبته وصوتها يهتف بداخله:
- أنا أعلم.
- تعلمين؟ تعلمين ماذا؟
- أعلم.. أنّك.. مثلي.. لا.. لا تبصر..
- أما زلت لا.. لا تريد قول شـ...

- أحبك!!
قاطعتها بكلمتي هذه وتابعت بصوت متهدّج:
- أحبك يا إيمان.. أحبك من أول يوم قابلتك فيه..
أحبك بكل ما بي من مشاعر.. أحبك وسأظلّ أحبك طوال عمري..

* * *

«رجّعوني عينيييك لأيامي اللي رااحت..
علّموني أندم على الماضي وجرااااحه»..
أنا أندم على كلّ يوم عشته من دونك يا حبيبتي..
بل أنا التي أندم على أنّني لم أقابلك منذ أن فتحت عينيّ على الحياة..
«اللي شفته.. قبل ما تشوفك عينيّ.. عمر ضايع.. يحسبوه ازّاي عليّ..
انت عمرييييي»..
- إيمان.. أحبك.. أحبك..
أنا لو تمنّيت الحياة لن أتمنّاها إلا لكي أكون بجوارك.. حولك في كل مكان!!
- بل أنا التي أتمنّى أن أعيش بجوارك وأنتهل من نبع حبّك وحنانك..
كانت الذكريات تتقافز إلى رأسي بينما أتحرّك إلى صورة حبيبتي..
لم أشعر بصمت من حولي ولا نظرات الدهشة على عيونهم عندما عرفوا في وجهي الشخص نفسه الذي في الصورة..
هيثم صديقي اتسعت عيناه وهو يشاهدني وأنا أدفع بعجلات كرسيّ المتحرك إلى المسرح وعيناي منشدّتان إلى وجه حبيبتي..
وجه حبيبتي الذي لأوّل مرّة أراه بعد أن أعاد الله إليّ نظري بمعجزة من عنده.
وقفت عند المسرح لتتمسّك يدي بمسند الكرسي المتحرّك و.. وقفت..

وقفت وأنا أنقل قدمي في بطء وأدفعها دفعا إلى حبيبتي..
حبيبتي.. آه ه ه ه ه يا روح روح قلبي..
مددت يدي وأنا أغمض عيني إلى وجهها الملائكي لأتحسّسه بأناملي ولأراه بقلبي..
فتحت عينيّ المغرورقتين بالدمع لأتأمل عينيها العسليّتين وأنا أقول:
- إيمان.. كم أفتقدك..
حبيبتي الغالية.. كم أحتاج إليكِ..
تلمّست وجهها بيدي لأجد نفسي أحتوي صورتها بين أحضاني وأتابع بكل اشتياق:
- إيمان.. اغفري لي..
لقد تركت يدكِ.. اغفري لي.. اغفري لي يا أحب من في الدنيا إلى قلبي..
اغفري لي عجزي وضعف قوتي..
- باسم.. أهو أنت فعلا؟ أنت.. أنت.. حيّ.. حيّ..
وجدت صديقي هيثم يحتويني وهو غير مصدّق ما يراه بينما عبراته تتساقط فوق كتفي وهو يغمرني بقبلاته ويقول:
- أنت حيّ.. حيّ.. أنت نجوت.. أين زوجتك؟
أخذ ينظر حوله وكأنّه يبحث عنها وهو يتابع:
- أين زوجتك؟ أليست معك؟ باسم أليست مع...
قطع كلمته وهو يرى الحزن المتدفّق من كل خلايا جسدي وأنا أعيد النظر إلى صورتها لأقول:
- لقد.. لقد.. رحلت.. أخذها البحر منّي..
تركت يدها لتسقط و.. و...
غلبني البكاء ليحتويني صديقي ويحاول تهدئتي و...
- لم تمت.

التقطت أذني هذه الكلمة الآتية من منتصف القاعة لألتفت إلى قائلها الذي تابع:

- هذه.. هذه التي في الصورة لم تمت..

- ساندرا!

قلتها في دهشة وأنا أتطلّع إليها وهي تقف مذهولة بينما تشير إلى الصورة بيدها..

- ساندراااااا..

صرخت بها وأنا أنطلق كالمجنون إليها لأمسكها من كتفيها وأهزها في عنف:

- ساندرا.. ماذا قلتِ؟

نظرت إليه في ذهول تام وهي ما زالت تشير إلى الصورة وجميع من في القاعة يتابعوننا في صمت تام.

- ساندرا.. أقلتِ إنها حيّة؟ إيمان حيّة؟

- إيما... إيمان.. إيمان من؟

قالتها في دهشة فقلت لها وأنا في قمّة توتّري وانفعالي:

- هذه التي في الصورة.

نقلت بصرها في ذهول بيني وبين صورة حبيبتي والجميع ينظر لها في تطلّع وارتقاب:

- هي، ولكن..

قالتها لترتفع دقّات قلبي عاليا وأشعر بأنني لا أجد صدى لأنفاسي وهي تتابع:

- ليس اسمها إيمان و.. و..

تلعثمت قليلا ثمّ نظرت إليّ لتتابع:

- وهي ليست بـ... بـ... بعمياء.

وكما حداني الأمل للحظات انكسر فجأة..
انكسر وتحطّم ومعه انسحبت روحي من جسدي..
انسحبت و...
- بل هي يا ولدي.. هي زوجتك الغائبة.
كانت أنفاسي تتلاحق وقلبي ينبض كما لم ينبض من قبل وأنا ألتفت لهذا الرجل الأشيب الوقور الذي تابع بفرنسيّته:
- أنا مسيو ميريديان، مالك هذه الباخرة.
ثمّ أشار بيده إلى ذلك الشاب ذي النظرات الذاهلة متابعا:
- وهذا ولدي نيرو، وهو الّذي أنقذها يوم العاصفة.
التفتت العيون جميعها والتقت عند نيرو الذي تلعثم قليلا ثمّ التفت إلى والده قائلا بصوت أقرب للرجاء:
- لكن يا أبي من أنقذتها لم تقع في الماء كما قال، بل كانت ملقاة في الدور الثاني للمركب وهي مبصرة وليست بعمـ...
- ولدي.
قالها مسيو ميريديان مقاطعا ولده الذي حنى رأسه إلى أسفل وتابع:
- ولدي، أعلم جيّدا ما تكنّه من مشاعر، لكن ها أنت رأيت أن لها زوجا وفيا محبّا لها وترى كم عانى وقاسى.
عادت العيون كلّها تلتقي عند نيرو..
نيرو الذي كانت حياتي بأكملها تنتظر تلك الكلمات التي ستخرج من فمه..
وما هي إلا لحظات مرّت عليّ وكأنّها سنوات وسنوات حتى وجدتّه يرفع عينيه المثقلتين بالدموع ليرمقني بهما قائلا في استسلام:
- إنّها.. إنّها..
صمت قليلا ومعه بدأت دقّات قلبي تعلو وتعلو حتى ارتفعت لتملأ

صمت المكان..

- هي!!

قالها لأسرع إليه وقد خالجتني جميع المشاعر من فرح ولهفة وخوف وقلق.. لأجدني متمسّكا بيده وهو يتابع:

- إنها تقف الآن في المكان نفسه الذي.. الذي...

عاد إلى صمته وكأنّه لم يرد إخباره بمكانها أو أنه ما زال يأمل ألا تكون هي..

فقط أشار إلى الصورة ليفهم باسم ما يريد ولينطلق مسرعا ليفتح باب القاعة قبل أن يوقفه صوت نيرو قائلا:

- انتظر..

التفتّ إليه وقد زاد قلقي، فتابع:

- إنها فاقدة للذاكرة وقد لا تتعرّف عليك، كما أنها لم ترَك من قبل.

صمتّ قليلا قبل أن تلتمع عيناي ببريق العزم والقوّة وأنا أقول:

- قد لا تعرفني بعينيها..

قد لا تتذكّرني بعقلها..

لكنّها ستعرفني بقلبها!!

وانطلقت إلى حبيبتي وقلبي يخفق في عنف أقوى من عنف الرعد في قلب العاصفة، تتبعني عيون كلّ من في القاعة..

عيون حائرة..

عيون دامعة..

عيون مندهشة..

عيون تتساءل:

- ترى هل هي فعلا؟

ولو كانت هي فكيف أبصرت؟

بل كيف نجت؟
وهل ستعرفه وهي فاقدة للذاكرة؟
وبقيت الأسئلة دون إجابة..
مثلها مثل ذلك الذي لفّ الجميع داخل القاعة..
الصمت..
صمت تام..

* * *

كانت الشمس تقطع الشوط الأخير في رحلتها الدائمة لتغوص داخل البحر وهي تودّع هذا النصف من الكرة الأرضية بأشعتها الذهبية المائلة للاحمرار، التي انعكست على سطح الماء ليتلون بلونها والذي بدأ ينسحب تدريجيا ليسمح بانعكاس لأشعّة فضّية اللون لقمر ساطع التمع ضياؤه على وجوه كل من كان على سطح الباخرة «إخناتون» في هذا الوقت، والذين انغمسوا بمشاعرهم كلّها داخل هذه اللوحة الربانية الرائعة، حتى إن إحداهم كانت تقف منذ فتره في البقعة نفسها وقد أطلقت بصرها لتتابع به غروب الشمس، إلا أن عقلها كان يسبح في مكان آخر..

فهي منذ أن تابعت الحملة الدعائية للباخرة ومنذ أن بدأت في زيارة الباخرة للوقوف على استعدادها حتى جذبتها تلك الباخرة بل وجذبتها تلك البقعة التي تقف فيها خاصة، لدرجة أنها أصبحت تشتاق للوقوف فيها وتشعر بشيء غريب كلما تلمّست بيدها هذا الحاجز الحديديّ..

حتى أحلامها الغريبة التي ترى نفسها تسقط فيها في بحر هائج عظيم الأمواج وهي تصارع وتصارع من أجل النجاة كانت تبدأ من تلك النقطة.. حتى أتى منقذها..

منقذها الذي ظهر لها من بين الأمواج ليتشبّث بها وأخذ يدفعها للنجاة.. منقذها الذي تحاول جاهدة أن ترى وجهه، إلا أن السواد المحيط بها حال دون ذلك..

إنّها تشعر به..

تشعر بلمسة يده.. بل إنها تشعر بأنفاسه، إلا أنها لا تراه..

أطلقت زفرة حارة من صدرها وهي تتلمّس باشتياق حائر ذلك السور الحديدي، قد يبعث فيها بعضا من الدفء وهي تعيد نظرها الشارد إلى البحر وأمواجه و...

- إيمان؟

اخترقت تلك الكلمة أذنها لتخرجها من شرودها ومع أنها ليست المعنية بالاسم، إلا أنها التفتت إلى صاحب الصوت الذي تنهّد في حرارة وهو يقول:

- إيمان؟

صوته الحنون وهو ينطق بالاسم.. لهفته الواضحة.. جعلاها تريد الالتفات حولها، لترى من يقصد، إلا أن وجهه الذي التمع بضياء القمر وعينيه اللتين تلألأتا بعبرات كادت تتساقط جعلتها منجذبة إليه والحيرة على وجهها..

- إيمان.. أنا باسم.

أنا باسم حبيبك.. زوجك.. ألا تتذكّرينني؟

ظهرت الحيرة على وجهها وزادت نبضات قلبها وهي تنظر إلى وجهه في دهشة عجيبة..

لقد فهمت ما قاله..

لقد نطق بلغة غير لغتها، لكنّها فهمتها، بل واستراحت أذنها لها وكأنّها هي لغتها الأمّ، مع أنها أول مرّة تسمعها..

وفي شرود وحيرة وبصوت متردد أجابته بنفس لغته العربية:

- أنا.. أنا لست إيـ.. إيمان..

قالتها والدهشة ترتسم على ملامحها وعقلها الحائر يتساءل:

- كيف فهمت؟ بل كيف نطقت؟ و...

- بل هو أنتِ.. أنتِ إيمان.. أنتِ حبيبتي وزوجتي..

كان يقولها وهو يحاول أن يسيطر على مشاعره الجارفة وعلى كلّ خلية من خلايا جسده التي تتمنّى أن تلقي بنفسها في أحضان زوجته وحبيبته لتحتوي شوقه ولهفته ولوعته..

بينما هي كانت شاردة تنظر إليه بنظرات زائغة وهي تشعر بشيء ما

يتحرّك داخل قلبها وعقلها وهو يتابع بصوت حزين:
- ألا تتذكّرينني يا حبيبة القلب؟
امتلأ وجهها بالحيرة وهي لا تعلم بماذا تجيبه، ثمّ قالت:
- لكنّني.. لكنّني أول مرّة أراك.
قالتها ليظهر حزن عميق على وجهه وهو يغلق عينيه في قوّة، ومن أسفلهما هربت إحدى عبراته الحارة، وما لبث قليلا حتى فتح عينيه واقترب منها لتشعر بلمسة يده التي جعلتها ترتجف وكأنه لمس أعصاب جسدها بأكمله وهو يقول بصوت دافئ حنون:
- قد لا تكون عينكِ هي التي رأتني..
قد يكون قلبك.. إحساسك.. شعورك.. هو الذي رآني!!
استسلمت ليده التي أمسكت بيدها الاثنتين لتضعهما على وجهه، ثمّ شعرت بيده وهي تغلق عينيها التي أغلقتها فعلا أول ما لمست وجهه..
كانت تشعر بقوّة غريبة جعلتها تستسلم لكلّ ما يفعله، لكن ومن دون أن تشعر تحرّكت يدها على وجهه..
تحرّكت وكأنّها تعلم طريقها وتحفظ تلك الملامح، بل.. تراها..
هذا الجبين..
هذه العيون..
هذا الأنف..
أناملها تتحرّك وعقلها يرسم وجها تعرفه و...
«عيناي.. عيناي.. ماذا حدث؟ أجيبوني؟
هل أصبحت.. عميا...
لاااااا.. أنا لا أرى.. لا أرى.. لاااااااا..
دووووممممممممممممممم
با... باسم.. أنا خائفة.

أنا.. أنا.. سأقع.. لا تتركني.. باااااااسم..
«دووووومممممممممممممم»
أحبك يا باسم..
أحبك..
شعرت بوجنته فطبعت عليها قبلة حملت كلّ حبّها وعشقها و.. وداعها..
أرخت أصابعها من حول يده بينما تشعر بيده وهي تتمسّك بها أكثر وهو يصرخ باسمها و..
«دووووومممممممممممممم»..
سمعت صوت الرعد ثمّ شعرت بمياه قوية تدفعها إلى الأمام بقوة ويد باسم المتشبّثة بها تتركها مرّة واحدة وكأنّ عملاقا انتزعها..
شعرت بجسدها وهو يصطدم بحاجز الباخرة..
تشبثت به بكلّ ما فيها من قوّة وهي تستمع لصراخ باسم..
الموجة انحسرت إلى البحر لتشعر به وكأنّه يجذبها إليه..
حاولت الصراخ إلا أن فمها امتلأ بالماء..
حاولت الصمود وهي تستمع صرخات باسم الحزينة..
حاولت و.. استسلمت..
يدها وقواها خارت تماما و.. وقعت..
آآآآآآه هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ..
كانت تعلم أنها ستقع في البحر فأطلقت صرخة خوف و...
ما هذا؟
قالتها في دهشة من وسط ألمها عندما شعرت بتلك الأرض الخشبية التي وقعت عليها وبتلك الضربة الشديدة على رأسها ومع ألمها الشديد، إلا أنها تمسّكت بها بقوّة..
هذا زورق؟

مستحيل.. إنّه زورق نجاة..
زورق النجاة كان أسفل منّا، لكنّنا لم نرَه و...
ما هذا؟
إنّني.. إنّني.. أراه.. أراه..
أخذتها دهشة شديدة، حتى إنها لم ترَ تلك الموجة الثانية التي حملتها حملا من داخل الزورق الخشبي لتدفعها معها إلى داخل الباخرة في الدور الثاني لها ليصطدم رأسها بعنف شديد هذه المرّة بأحد العوارض الخشبية لترى هذا السائل الأحمر وهو يُغرق وجهها ومعه تلك الأشباح التي تقترب منها..
وقبل أن تفقد وعيها التقطت أذنها هذا الصوت..
صوت باسم وهو يصرخ بأعلى صوته من فوقها وهو يبحث عنها..
أرادت أن تخبره أنها حيّة.. أنها أبصرت..
أرادت أن تصرخ:
- باااااسم.. أنا حيّة.. أنا حيّة..
- إيمان.. إيمان.. أنا معكِ.. أفيقي يا حبيبتي..
أخذ يهزها في عنف وهي ما زالت تقول ودمعها يسيل أنهارا من عينيها:
- أنا هنا يا حبيبي.. أنا لم أقع في البحر.. باسم.. باسم..
شعرت بتلك الهزة الشديدة ففتحت عينيها لترى يدها الملتفّة على وجهه لتتسع عيناها في دهشة وتتوقّف الكلمات في حلقها وباسم تغمره الفرحة، بينما عبراته تعبر طريقها من بين يديها وهي تحرّك شفتيها باسمه وهو يومئ برأسه إيجابا و...
انطلقت مشاعرهما..
مشاعر حب صادق قوّي..
مشاعر عارمة مليئة بشوق وحنين وعطف وحبّ..

انطلقت وهي تلقي بقلبها بين صدره الحنون..
انطلقت وهو يضمّها بلهفة زوج طال اشتياقه إلى زوجته ومحبوبته وعشقه الوحيد..
ضمّها كما لم يضمّها من قبل..
احتوته كأنّها أول مرّة تحتويه..
كان يبكي ويلثمها بكلّ شوق ومحبّة..
كانت تجيش بالبكاء وهي تذوب وتذوب وتذوب بين يديه..
وبرفق أبعدها عن صدره وهو يتأمّل عينيها قائلا:
- كم أوحشتِني..
وبكلّ لهفتها غير المصدّقة أجابته وهي تضع كفيها على وجنتيه:
- وأنت.. أنت يا باسم..
أنت يا زوجي ويا حبيبي ويا عمري، كم.. كم.. كم أوحشتني!!
تأمّلت عينيه ثم قالت وكأنّها تذكّرت شيئا:
- أنا أراك.. أنا أراك يا باسم..
ربت على وجهها ثمّ ضمّها إليه وهو يقول:
- وأنا أيضا.. وأنا أيضا أراكِ.
لقد أراد الله تعالى أن نمرّ بكلّ هذا لحكمة عنده، وها نحن الآن قد جمعنا وردّ لنا بصرنا وأتمّ نعمته علينا..
أعادنا وأعاد لنا قلوبنا وحبّنا..
أمسكت يده بقوّة وهي تقول:
- أنا لن أترك يدك أبدا..
أدار جسدها ليغمر ضياء القمر وجهها وتلتمع عيناه وهو يقول:
- وأنا لن أتركِكِ أبدا يا حبيبة العمر والقلب والروح..
وارتبطت نظراتهما ببعضهما البعض..

نظرات من العين للعين..
نظرات من القلب إلى القلب..
القلب الذي رأى وأحبّ..
أحبّ من دون عين لأنه أقوى من العين..
أحبّ بشعوره.. بإحساسه..
أحبّ وصرخ قائلا:
- أنا لست بأعمى..

تمت

د/ لؤي عبد المنعم

المحتويات

٧ بعد الرحيل

١٧ ملهمتى

٣٣ من أكون

٧١ دماء العذاري

٨٩ من أجلك صلي شيطانى